حقيبة سفر

هي حقيبة حافلة بمحتويات مجازية شتى، من رؤى وهواجس ومشاهدات وأحاديث وقراءات، تشكل خلاصة تجربة مكثفة لسنوات ثلاث عشتها في طوكيو، وطفت في مدن ومناطق عديدة من تلك البلاد. لماذا مجازية؟ أولاً، لأنها قراءة خاصة في المشهد الياباني محكومة بالظروف المحيطة بتلك السنين، في مختلف مستوياتها الشخصية والعامة، الواقعية والمتخيلة، فكراً وعاطفة ومعايشة يومية. ثانياً، لأن كل شيء في حياتنا مجازي عابر، بدءاً من الصرخة الأولى بين يدي القابلة، حتى الشهقة الأخيرة. وهذا البوح، الاعتراف أو المكاشفة، لا يدخل في معلبات التفاؤل أو التشاؤم، إنما هو شعور حي وإدراك عميق عشته طويلاً، وما زلت أعيشه بفرح وجداني حميم وعبطة بدوية غامرة.. ولم يُسدَل الستار عليه بعد، لأن تلك المهمة سيقوم بها غراب جميل قادم من كوة الغيب بزي حمامة بيضاء تحاماً كما كانت الجدات تحكي لنا عنه قبل سبعين سنة أو تزيد قليلاً، وكنا نشعر بصحبة ودية أليفة معه، ونحن نحمل المصاحف لنقرأ على رأس قريب أو جار في ساعة احتضاره أو بعد أن فارق الحياة وأسلم الروح إلى بارئها...

مجاناً مع دبي الثقافية

كتاب دبي الثقافية 101

فبراير 2014

السيف والمرآة

رحلة في جزر الواق واق

علي كنعان

190 X125

كتاب

دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الاصدار 101

علي كنعان
(أ/م)*

السيف والمرآة
رحلة في جزر الواق واق

* (أ/م): أحمد ومطرة (والثاني). أقرنهما باسمي دفعاً لتشابه الأسماء والتباسها في ملفات الأشباح

■ الطبعة الأولى، فبراير ٢٠١٤

■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦، ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

B3, 65

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «السيف والمرآة – رحلة في جزر الواق واق» للشاعر والمترجم علي كنعان، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه

من قرائنا الأعـزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم وملاحظاتهم حول هذه الإصـدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

الإهداء

إلى الشاعر محمد أحمد السويدي...

وإلى الأستاذ نوتوهارا (نوبوأكي)، المستعرب الرصين

ورئيس قسم اللغة العربية في جامعة طوكيو:

المنارتين الوهاجتين في غرب آسيا.. وأقصى شرقها، أقدم

لهما كتابي هذا..

رمز وفاء ومودة واعتراف بالجميل...

لا يقوى الزمن على طمسه.. أو حجب سناه.

أبوظبي في ٢٢/١/ ٢٠١٤

علي كنعان

إشارة

فاجأتني طوكيو منذ الليلة الأولى، إذ صحوت باكراً والشمس في خدر أمها، كما يقول بشار بن برد. وقد أثارتني أصوات الغربان المعششة في أشجار الحديقة المجاورة، وخُيِّل إلي أن أجدادنا أطلقوا على الأرخبيل الياباني اسم جزائر الواق واق من وحي تلك الجوقة الصباحية ودلالة عليها. وفي إحدى الجلسات الاحتفالية بنهاية أسبوع العمل الأكاديمي من مساء الجمعة في مكتب الأستاذ نوتوهارا، المستعرب الرصين ورئيس قسم اللغة العربية في جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، طرحت فكرتي هذه في حضور لفيف من الأساتذة.. وأخذ كل واحد منهم يدلي بدلوه.

لكن الأستاذ نوتوهارا في ختام الجلسة قال: «في تقديري أن الاسم مأخوذ من كلمة واكو Wako في اللغة اليابانية القديمة، والكلمة تعني «قرصان أو قراصنة». كان أجدادكم يسافرون في سفن صينية، وحين يلمح البحارة مركباً للقراصنة اليابانيين كانوا يصيحون: «واكو.. واكو»! وقد اختزن أجدادكم الكلمة في ذاكراتهم، ونسجوا حولها عديداً من الأساطير. من هنا، على ما يبدو، جاءت الـ «واق واق». ومعروف أن القراصنة

اليابانيين كانوا رجالاً أشداء، قصار القامة، مكتنزي الأجسام؛ وبحارة السفن التجارية كانوا حريصين على الابتعاد عنهم، ما أمكن، اتقاء لشرهم وإيثاراً للسلامة».

ومع أن عبارة الـ «واق واق» ترد في العديد من المصادر العربية، جغرافية وتاريخية وأسطورية، إلا أن التعليل الوارد آنفاً يبدو لي أقرب ما يكون من المنشأ المنطقي الدقيق لها، وإن ظل باب البحث والاستقصاء مشرعاً على احتمالات لا تتوقف. ولعل إعجابي بذلك الاكتشاف اللبيب، وتقديراً لهذا الأستاذ الياباني الجليل أردفت عنوان الكتاب بعبارة إيضاحية «رحلة في جزر الواق واق». وهي «رحلة في..» وليست «رحلة إلى..» لأن المقصود ما خبرته في ذلك المكان، وليس المكان ذاته. والعبارة هكذا أعمق معرفة وأبلغ دلالة.

وثمة نقطة أخرى أود لفت النظر إليها ممثلة بهذه النجمة*، وهي للدلالة على أن للكلمة المقترنة بها مرجعها في الهوامش الأخيرة، ومن يرغب بمزيد من الاطلاع يمكنه التماس ذلك هناك.

وفي ختام هذه الإشارة، لا بد من التنويه إلى أنهم في اليابان يركزون على اسم العائلة ويذكرونه أولاً.. وقد يكتفون به، أما الأسماء الشخصية فلا ينادى بها ولا تذكر غالباً إلا

بين الأهل والعشاق والأصدقاء. ولدى ورودها في النص هنا ستكون بين هلالين، بعد اسم العائلة مباشرة، فالاسم الشخصي للأستاذ نوتوهارا هو (نوبوأكي)، وهكذا سوف ترد سائر الأسماء. ولدى ورود الاسم لأول مرة، أضعه بأحرف مائلة، تمييزاً له وتأكيداً على أنه اسم علم، تاريخي أو جغرافي، واقعي أو أسطوري. ومن عادة اليابانيين أن يلحق بكل اسم كلمة سان، أي «سيِّد»، وحتى مع أسماء الأطفال تتحول الكلمة إلى تشان تحبباً. فالطفلة يوريكا مثلاً.. لا يناديها أبوها أو أمها إلا باسم: «يوريكاتشان». ونظراً لأن أبجديتهم خالية من حرف اللام فهم يلفظونه راء، ويوم زارني أخي يونس وسمعهم ينادونني: «أريسان»، علق ضاحكاً: «كنت في سوريا عريساً واحداً، وأنت هنا عريسان»!

حقيبة سفر

هي حقيبة حافلة بمحتويات مجازية شتى، من رؤى وهواجس ومشاهدات وأحاديث وقراءات، تشكل خلاصة تجربة مكثفة لسنوات ثلاث عشتها في طوكيو، وطفت في مدن ومناطق عديدة من تلك البلاد. لماذا مجازية؟ أولاً، لأنها قراءة خاصة في المشهد الياباني محكومة بالظروف المحيطة بتلك السنين، في مختلف مستوياتها الشخصية والعامة، الواقعية والمتخيلة، فكراً وعاطفة ومعايشة يومية. ثانياً، لأن كل شيء في حياتنا مجازي عابر، بدءاً من الصرخة الأولى بين يدي القابلة، حتى الشهقة الأخيرة. وهذا البوح، الاعتراف أو المكاشفة، لا يدخل في معلبات التفاؤل أو التشاؤم، إنما هو شعور حي وإدراك عميق عشته طويلاً، وما زلت أعيشه بفرح وجداني حميم وعبطة بدوية غامرة.. ولم يُسدَل الستار عليه بعد، لأن تلك المهمة سيقوم بها غراب جميل قادم من كوة الغيب بزي حمامة بيضاء تحاماً كما كانت الجدات تحكي لنا عنه قبل سبعين سنة أو تزيد قليلاً، وكنا نشعر بصحبة ودية أليفة معه، ونحن نحمل المصاحف لنقرأ على رأس قريب أو جار في ساعة احتضاره أو بعد أن فارق الحياة وأسلم الروح إلى بارئها...

إن لكل عصر إيقاعه المختلف وسماته المميزة، ثقافة واجتماعاً وإبداعاً وأنماطَ عيشٍ وتعبيرٍ وسلوك، كما أن لكل بلد في العالم إيقاعه الخاص وملامحه الفارقة والمتغيرة، حضوراً وامتداداً وانحساراً، على مر العصور. منذ الطفولة المبكرة وأنا أحلم بالسفر، وكم كنت أرى على الأفق الشمالي مقابل باب دارنا في تلك القرية الصغيرة الهاجعة على كتف البادية التدمرية سُلَّماً أو ما يشبه السلَّم من الغيوم، وتراودني أحلام زاهية بأني لا بد أن أتسلق درجاته يوماً لأكتشف ما وراء ذلك الأفق الرمادي الغامض. لكني لم أفكر أبداً بزيارة اليابان، وإن كنا نتغنى في شبابنا بقصيدة حافظ إبراهيم «غادة اليابان». ربما لم يكن لتلك البلاد النائية وهجها، لأن المثل الأعلى في تلك المرحلة كانت فييتنام ومسيرة الصين العظمى وطموحات تشي غيفارا، وكنت أحيانا أعجب من الطلبة الذين يتابعون دراساتهم العليا في الهند، بدلاً من أوروبا.

ويوم جاءتني فرصة السفر لم تكن حلماً، ولكنها حالة مشحونة بالغموض والشجن والمرارة، أشبه ما تكون بالهروب من واقع ثقيل لا يطاق. لم يكن في تصوري أن اليابان يمكن أن تكون بهذا الشكل الجميل والمدهش، فهل كنت مأخوذاً بالمركزية الأوروبية من خلال دراستي للأدب الإنجليزي؟ وهل كانت صورة العالم تبدأ وتنتهي بين بحر العرب وشاطئ

كاليفورنيا حيث مات عمي في ثلاثينيات القرن العشرين بعد هروبه، مع ألوف المهاجرين العرب، من عيشة القهر والانكسار تحت حكم ولاة بني عثمان وسلاطينهم؟

أجمل ما في اليابان البساطة والطيبة في المعاملة، وهذا التآلف والانسجام السحري بين الأصالة والمعاصرة، بين كنوز التراث وذخائره وقيمه العريقة.. وبين الحداثة وما أنتجته المدنية من إبداعات وهي تتقدم بسرعة فلكية إلى الأمام. والبلاد مجموعة من الجزر تعد بالآلاف، لكن الجسد الأساسي أربع وصورتها الجغرافية تشبه تِنِّيناً أسطورياً يقارب طوله ثلاثة آلاف كيلومتر، ويمثل رأسه المربع الضخم جزيرة هوكايدو في أقصى الشمال الشرقي وله قرن يتجه نحو سخالين الروسية، وتشكل هونشو جذعه الأساسي الطويل، وتحتها كيوشو وكأنها امتداد للجذع يميل جنوباً بزاوية قائمة، وبينهما شِكوكو كسرير طفل، بينما يمتد ذيله في شريط رفيع يضم أكثر من ٥٠ جزيرة صغيرة إلى أوكيناوا في أقصى الجنوب الغربي.

ولا غضاضة في هذا التشبيه، فالتنِّين واحد من أبراج الفلك الصيني والياباني*، وقد انتهت الألفية الثانية سنة ٢٠٠٠ بهذا البرج. والمولعون بلغة الأرقام يقولون إن عدد الجزر التي

يزيد قطر الواحدة منها عن مئة متر في ذلك الأرخبيل يبلغ نحو ٦٨٠٠، لكن المأهول منها لا يزيد عن ٤٠٠ جزيرة إلا قليلاً.

التحولات المناخية والجيولوجية عبر العصور لعبت دورها كاملاً في تلك المنطقة، كما في كل مكان. ويرى العلماء أن هذه الجزائر كانت متصلة بالبر الآسيوي قبل ٤٠ ألف سنة، وبعضهم يرفع الرقم موغلاً في عباب الزمن السحيق إلى مئة ألف أو مئتي ألف سنة. أما الآثار واللقى الفخارية المكتشفة فتشير إلى نحو عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. ولعل هذا الرأي يكفي، انسجاماً مع مراكز الحضارات الأخرى في العالم. وتشير الدراسات التاريخية إلى أن الإمبراطور جِمُّو Jimmu يقف على رأس البلاط الإمبراطوري في تاريخ اليابان، وهو أول من بدأ هذا النظام، وفي التقدير الغالب أنه نشأ تقليداً للصين، قبل ما يزيد عن ٢٦٠٠ سنة، وإن كانت الوثائق الصينية والكورية تحدد تاريخه بعد ذلك بما لا يقل عن ستة قرون.

اسم اليابان في لغتهم نِهُنْ Nihon أو نِبُنْ Nippon ومعناها: مصدر الشمس، وتكتب بشكلين أو رمزين متجاورين: نِي التي تعني الشمس، وهُنْ التي تعني «أصل، مصدر.. أو كتاب».. لأن الكتاب ينبوع المعرفة. وهم يعتقدون أنهم من

أبناء الشمس، وسيرد ذلك واضحاً في الحديث عن المرأة الأم ومكانتها المتميزة في التربية والتعليم وبناء الأسرة والمجتمع.

كنت حريصاً على أن أقدم للطلبة خلاصة ما أختزن في ذاكرتي من الأدب العربي عبر تاريخه المديد، إضافة إلى ما حملت معي من الكتب المساعدة، وبخاصة في القصة والرواية والمسرح. وفي الجامعة مكتبة تحتضن ألوف الكتب العربية، وهم مستعدون لإحضار المزيد. ولم أكن لأكتفي بالتدريس، إنما كنت تلميذاً ظامئاً لاستجلاء الحياة اليابانية والثقافة بوجه عام، أرتشف ما أمكن من أحاديث الناس وخبراتهم أثناء تعاملي اليومي معهم. وكان الأستاذ نوتوهارا، جزاه الله كل خير، قد أخذ على عاتقه تدريس قواعد اللغة العربية وأعفى جميع الأساتذة من هذا العبء الشاق. كنت قد اعتمدت في برنامجي على عشرات النصوص المقتبسة من أدباء عصر النهضة في مصر وسوريا والعراق ولبنان وفلسطين، وكان عليَّ أن أختار نصاً مسرحياً لطلبة السنة الثانية أو الثالثة لكي يقدموه في عرض تمثيلي حي، وهذا يتطلب جهداً إضافياً وسهراً يومياً طوال شهرين من القراءات والتمارين المتواصلة خارج الدوام.

قصص زكريا تامر «النمور في اليوم العاشر»، رواية ألفة الإدلبي «دمشق يا بسمة الحزن»، رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال»، «لغة الآي آي» ليوسف إدريس، و«ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة، إضافة إلى المناقشات الحرة في حدود ساعتين من عصر كل أربعاء. وكانت معظم أعمال غسان كنفاني، «طواحين بيروت» لتوفيق يوسف عواد، «الأشجار واغتيال مرزوق» لعبد الرحمن منيف، و«الجمر والرماد» لهشام شربجي.. موضوع تلك الساعات الحرة. هذه كانت أهم الأعمال النثرية التي قدمتها لطلبة السنتين الثالثة والرابعة. وكانت مسرحيات محمود دياب وسعد الله ونوس أهم النصوص التي اقترحتها عليهم، وقد اختاروا أولاً «رأس المملوك جابر»، وفي السنة التالية «الملك هو الملك». وأود هنا أن أسجل عميق إعجابي وخالص تقديري لأولئك الطلبة الذين كانوا يحفظون أدوارهم في النص خلال بضعة أسابيع، ثم يقدمون المسرحية بلغة سليمة وعرض فني جميل.

إن اليابان الأرض والشعب معاً، بجمال الطبيعة والعلاقات الحميمة مع الناس والأجواء والحياة بأبهى تجلياتها وتفاعلاتها الثقافية والاجتماعية وحتى المعيشية.. وبكل إثاراتها وإيحاءاتها وذكرياتها الغالية اليابان، تلك الجزر

الطافية على حافة المحيط العظيم، جديرة بوقفة تأمل متأنية بعيداً عن الشعر، وإن كانت تجربتي هناك أشبه ما تكون بحالة شعرية غامضة.. يختلط الحلم فيها بالواقع، وتتشابك الأحاديث اليومية بالأساطير، وتذوب الهواجس بالأماني والتطلعات، وتتقاطع المواعيد الدقيقة بالمصادفات الخفية المدهشة.. وتكاد لوعة العشق الوجداني تمتزج برغبة الموت الروحانية، أملاً بالاندماج النهائي في ملكوت الطاقة الكونية التي لا بد أن تحضنني يوماً وأذوب في سبحاتها الأثيرية.

وإذا كان الهاجس الأول في جميع أسفاري هو الشعر والأسطورة وقراءة وجوه الناس وتصرفاتهم، فلا يمكن الحصول على هذه الكنوز من الكتب وحدها، ولكن لا بد من ارتياد الأرض التي نبتت فيها كلمات الشعر وأساطيره، لأن ثمة علاقة روحية بقدر ما هي عضوية ورمزية بين الفضاء والإبداع، بالمفهوم المغربي الواسع لمصطلح «الفضاء». ولعل الأهم أن نلامس التراب ونرتشف الماء ونعاشر الناس في حياتهم اليومية، ونمعن النظر في مشاهدة فنونهم وقراءة تصرفاتهم وعاداتهم، لأن الواقع اليومي حافل بالأساطير السحرية. من هذه الزاوية، يمكنني أن أدرك وأتفهم جيداً كيف ولماذا لم يكن رحالة الغرب ليروا في شرقنا العربي إلا أجواء

ألف ليلة وليلة! وكنت أحاول جاهداً أن أتجنب الوقوع في مثل هذا المنزلق العشوائي العقيم.

ربما كان الشعب الياباني من أكثر شعوب العالم استهلاكاً للشراب.. وكم كنت أشعر بالخوف عليه من وبال الإدمان، وتقدم الشركات ألواناً من الإغراءات لزيادة الاستهلاك. ففي شهور الدفء مثلاً، قبل موسم الأمطار الصيفية وبعدها، تقيم المؤسسات الاستهلاكية على السطوح مطاعم شواء ومشارب موسمية لإغراء روادها بالجلوس والعشاء في الهواء الطلق، وحولك تتوهج أضواء العاصمة التي لا تنام.

لم أكن في طفولتي وصباي أحب رائحة الدسم ولا أتذوقه إلا مرغماً، وأدى ذلك إلى إصابتي بفقر الدم. لكن اليابان جعلتني أكتشف أن لي جسداً، وكان اكتشافاً متأخراً جداً.. إذ كنت في السابعة والخمسين يوم حدثت تلك الصدمة الرائعة. إن متعة اليابانى الأولى تكمن في الطعام والشراب. قد يتناول الوجبة معك عشرات المرات، وحين تسأله رأيه فيها يجيبك بإعجاب صادق ومتعة خاصة Oishii «لذيذة»! ولعل شرائح السمك النيئ سوشي أو ساشيمي من أشهى مأكولاتهم. المتعة الثانية تأتي في الراحة والاستجمام، بعد عمل مرهق. لا يشغلهم التفكير في الماضي ولا المستقبل، إنما اللحظة الراهنة

وارتشاف البهجة منها حتى آخر قطرة كل ما يعنيهم كما كان يبدو لي وإن كشفت بعض الدراسات والبحوث المختصة عكس ذلك. الهموم الشخصية تظل حبيسة في الأعماق. وفلسفتهم تفصل فصلاً واضحاً بين ما هو خاص وبين ما هو عام. وهذا يظهر جلياً في اللغة.

في لغتهم أربعة مستويات من الخطاب: مستوى الحوار بين الأصدقاء، مستوى الاحترام والمجاملة بين الطالب وأستاذه أو بين الصغير والكبير، مستوى الحديث الدبلوماسي وحديث التبجيل للإمبراطور، وهناك صيغة فعل لا تقال إلا للصغار والحيوان. وليس في هذه الصيغة الأخيرة من إهانة حسب مفاهيمنا. الحيوان والنبات عندهم جزء من الطبيعة المقدسة.

وأطرف ما قرأت من استطلاعات الرأي في الصحافة تلك الأجوبة المنشورة في رأس السنة عن سؤال: «ماذا تحب أن تكون في الجيل القادم؟» كانت النسبة الكبرى من عشاق الطيور والأسماك، وكان آخرون من عشاق الخيول والغزلان، وأغرب أمنية كانت أن أحدهم تمنى أن يعود إلى الحياة خنزيراً برياً، نعم.. خنزير بري! هذا ما ذكرته الصحيفة، ولا أظن أن الرجل يمزح أو يسخر. وأنت الغريب تقرأ وتتأمل وتندهش وتستمتع، وليس من حقك أن تشمئز أو تستنكر، بل لا بد من

أن تحترم أفكارهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ما داموا يعاملونك بالمثل، وليس هناك من شعب مختار في الحياة والسلوك والقيم والمعتقدات.

في حقيبة سفري أشياء غالية.. سأعرضها في الصفحات التالية لكل راغب، وعسى أن يجد القارئ فيها صوراً ومشاهد من تلك البلاد، تشرق حولها أطياف من حياتي هناك. أكثر من صديق ياباني سألني عن تلك التجربة، خصوصاً في ربيع ١٩٩٦ وأنا ألملم أوراقي وأغادرهم بلا وداع. ويطيب لي أن أردد هنا ما قلته في مقدمة مجموعتي الشعرية «أطياف من لياليها»: إن أطياف طوكيو ما زالت تخطفني في كثير من الليالي المقمرة إلى هناك.. لكني لا أعرف تماماً: أين يبدأ الحلم وأين ينتهي الواقع. وغالباً ما كنت أسأل نفسي: هل كانت حياتي هناك حقيقة أم حلماً؟.. هذه هي الحالة الشعرية التي لا أقوى على التقاطها بكلمات.. ولا أقوى على الخروج منها.

همسة أخيرة لا بد منها: بين شاطئ المتوسط في أقصى غرب آسيا وشاطئ المحيط الهادئ في أقصى شرقها بلدان وجبال وأنهار وبحار، لكن المسافات الفاصلة بين النفوس والعادات والثقافات أكبر. هناك مواقف عديدة تنبع من اختلاف زاوية النظر وطريقة التعبير.. وتؤدي إلى سوء

التفاهم، وربما سوء الفهم أيضاً، حدثت بين هذا الزائر الغريب وبين كثير من الزملاء والمعارف والأصدقاء؛ وهذا ما أوقعني في أخطاء ومفارقات غير مقصودة بكل تأكيد، كما أن هناك آخرين أخطأوا معي أيضاً دون قصد، لكني لن أردد مع كِبلينغ، شاعر الاستعمار الإنجليزي في الهند: «الشرق شرق والغرب غرب.. ولن يلتقيا»! إنما أقول مؤكداً أن القلب الإنساني أسمى وأصفى وألطف من مقاربة أي خلاف. وهذا يعني أن جميع الأنواء والغيوم التي تعكر الأجواء وتحدث عرضاً عبر تباين الأمكنة واختلاف المجتمعات وخصائص الألسنة والمفاهيم في أرجاء هذا الكوكب الأرضي الجميل.. هذه كلها تظل بعيدة عن خزائن الوجدان ومكنونات الذاكرة. ولعل هذه الهمسة الخاصة جداً تصل إلى مسامع الأصدقاء والأساتذة الأعزاء نوتوهارا. فوجيتا، ياغي، أوينو، هوندا، ساتو، نكامورا، كوندو، أوداوَرا، كاتاكورا، ياماشيتا، أوياما، كيغو، موري، الدكتور تُيويزومي وعائلته في مدينة تاكاساكي.. وجميع من عرفتهم في جامعات طوكيو ومعاهدها، همسة مفعمة بأندى آيات المودة والوفاء والاحترام.

بين مطار ومطار

الأربعاء في ٧ / ٤ / ١٩٩٣

قمرٌ في آخرِ الدنيا يناديكَ
فهل تخشى على الأحبابِ من بردِ الليالي
في نهاياتِ خريفِ العمرِ
إن لبَّيتَ ميعادَ القمر؟!

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة حين أقلعت بنا من مطار دمشق طائرة باكستانية في جو ربيعي مترف الصفاء. أخذت نفساً عميقاً بارتياح، وأنا أمسح بنظرة عابرة أطراف بادية الشام وملامح البيوت والأشجار التي تتسلق صدر قاسيون، وحمدت الله لأن رجال الأمن في المطار لم يكتشفوا بأني مشروع جاسوس إمبريالي أو عميل رجعي يستوجب التحقيق معه قبل أن يغادر أرض الوطن. كنا قبل شهور قد أصدرنا بياناً يدين احتلال الكويت «وتوحيد الوطن العربي على ظهور الدبابات»، وهي العبارة الجميلة التي صاغها سعد الله ونوس في ذلك البيان. ولم تكن السلطة السورية مرتاحة للبيان الأخير، بل حاولت أن تفرك آذاننا، كل حسب ما يستحق،

لتعيدنا مرغمين إلى حظيرة الطاعة والخنوع. فالمثقف العربي صعلوك، ابن جارية، ولا يحق له إبداء الرأي في أي شأن من شؤون الوطن الرازح تحت عصور الجليد، بكل مناخاتها وتصنيفاتها الفلكية والأرضية والفضائية!

سافرت كثيراً، من قبل، بين بلدان عربية وأجنبية شتى، وغمست قدمي في مياه الشاطئ الشرقي من المحيط الهادئ، على مقربة من جسر سان فرانسيسكو في أوائل سبتمبر (أيلول) ١٩٧٩. في أصيل ذلك اليوم، وكطفل في مدرسة القرية، سألت مرافقتنا العزيزة أستاذة المسرح في جامعة كالامازو بروفيسور نيلدا بولتش: أصحيح أننا هنا على الساحل الشرقي من المحيط.. وأن اليابان هناك على الطرف الغربي منه؟ وللتأكد من ذلك، رجوت رفيق الرحلة أن يكثر من التقاط الصور التذكارية. وها أنذا اليوم في الطريق إلى تلك الحافة من شرق آسيا لأقف على الشاطئ الغربي من ذلك الأوقيانوس العظيم..

لم يطل بي وقت التأمل واسترجاع الذكريات لأن ملاك النوم سرعان ما اختطفني إلى سكينته. كنت متعباً من السهر المتواصل مع الأصحاب في ليالي الوداع. وكانت كلماتهم الحميمة تهنئني بالخلاص الوشيك من أجواء القهر والترصد

وكتم الأنفاس، لأسرح طليقاً في فضاء الحرية. ولا أدري كيف رفرف من حولي طيفُ المتنبي فجأة، ولتذهب السياسة إلى قاع جهنم:

أنامُ مِلْءَ جفوني عن شواردِها...

من نِعَم الباري أنه أبدع ألواناً من عصارة الفاكهة الشهية، ولولاها كان ركوب الطائرة أشد مضاضة من ظلم ذوي القربى في نفس طرفة. الشراب، على مرارته بعيداً عن الأحبة والأصحاب.. ثم النوم، وإن زارك خجلاً مضطرباً، هما العزاء والسلوى وأنت معلَّق كجسد الحلاج بين السماء والأرض. وكان وجه (أبو عوف) عبد الرحمن منيف، الصديق الرائع والروائي الكبير الذي وقف حياته وموهبته لإنصاف المنبوذين والمهمشين وهو يكتب تاريخ من لا تاريخ لهم، آخر طيف يشرق في ذاكرتي ويتردد صوته في خاطري: «هذه تجربة استثنائية.. حاول أن تكتب عنها...» وها أنذا أستجيب لطلبك الغالي يا أبا ياسر، وقد حال الفراق بيننا.. وترامت المسافات.

دارت عقارب الساعة في إغفاءات ضبابية حالمة، وإن كانت متقطعة، حتى صحوت أخيراً على وقع احتكاك العجلات بالأرض في مطار كراتشي، ولم أكلِّف نفسي تحديد الوقت الذي استغرقته الرحلة بين المطارين، لكن الساعة لم تكن قد

تجاوزت الحادية عشرة ليلاً. وكان علي أن أنتظر هنا، على ساحل بحر العرب في جنوب الباكستان، نحو خمس ساعات وأنا محصور داخل قاعة العبور وحوانيت السوق التجارية المجاورة وبضائعها المتراكمة.

من أعاجيب التخلف أن صورته تتكرر في معظم مطارات العروبة والإسلام، فلا تنكمش كدراويش التكايا في ظلال واحة الذكريات، ولا تطفر بعيداً مع الرؤى الأرجوانية. تفرَّج.. ولا تسمح لغربان الأسى ولا لغيوم الشجن أن تعبر أفقك الجديد وتعكر صفاءه.

قبيل فجر الخميس أقلعت بنا إلى اليابان طائرة أضخم من الأولى. وكان في انتظارنا محطة واحدة للعبور السريع في مطار بكين، بيجِن Beijing كما يسميها الصينيون وقد بلغناها في أصيل ذلك اليوم، ثم غادرناها قبيل الغروب. المسافة القادمة لا تخلو من رهبة، وقد وشَّاها الغروب بغلالة وردية غامضة. لكن القفص المعدني واصل انسيابه بلين مريح فوق بساط حريري من الغيوم المتناثرة. وأخيراً، والساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً بتوقيت اليابان، هبطنا في مطار ناريتا الذي يبعد عن طوكيو نحو ٧٠ كيلومتراً.

سوف أطالع في الصحافة اليابانية، بعد شهور، نقمة الفلاحين على هذا المطار وظروف إنشائه؛ لقد سرق المشروع

أرضهم وحرمهم ثمرة خيرها وسكينة النوم ونعمة الراحة... وتشير الصحافة في ذلك الوقت إلى أن دعاوى المظلومين متواصلة منذ أكثر من عشرين سنة، دون أن يقتنعوا بما جرى أو يصلوا إلى بر الأمان. وتلك حكاية أخرى ستظل خارج السياق، وإن كان عالمنا المتخلف ما زال يعيش بحدة أهوالاً شتى أكبر من تلك الحكاية في تعامله الإقطاعي الحديث والجائر مع الكادحين من أصحاب الأرض. وكنت أستغرب كيف لدولة ديمقراطية عصرية أن تستمر فيها الدعاوى والمحاكمات كل هذه السنين. لكن ضريبة الدخول في العصر وامتلاك الأجواء بدت لي باهظة، وهي أقسى من أن يحتملها فلاحون بسطاء ما زالوا متعلقين بكل حفنة تراب من أرضهم التي غطاها هدير الطائرات.

كانت المطارات العربية، الوطنية والشقيقة معاً، دون أن أستثني إلا بيروت وتونس والإمارات، تجعلني دائماً أتوجس قلقاً وارتياباً لأن العربي مشبوه، وحامل جواز السفر من أي بلد عربي يضعه دائماً في قفص الاتهام، وعليه أن يثبت براءته بأعجوبة سماوية.. أو بشفاعة سحرية مباركة من الدولار الأميركي! لذلك قدمت لرجل الأمن جواز سفري وفتحت الحقيبة الأولى وهممت بفتح الثانية، وإذا بالرجل يقول متسائلاً: Sensei؟ ثم يستدرك، بعد أن قرأ ختم السفارة اليابانية في

دمشق، مـردداً باحترام: «Visiting Professor?»، لم ينظر إلى ما في الحقيبة، وإنما رد غطاءها وأعاد إليَّ جواز السفر، وأشار إلى الباب قائلاً: Doozo، Please!

تلفتُّ حولي مخافة أن يكون كلامه موجهاً لغيري، فلم أجد أحداً قريباً منا، فأغلقت حقيبتيَّ بارتباك وسحبتهما لأعبر بهما باب الصراط، وكأني في عالم أسطوري!

سوف أعرف بعد أيام من الأستاذ علي فردوسي، جاري في السكن ومدرس اللغة الفارسية، أن كلمة سِنْسِيهSensei تعني «أستاذ»، وهي تدل على كبر السن والاحترام، وكانت هذه أول كلمة يابانية تطرق سمعي في هذه الرحلة. وسوف أكتشف، بعد حين، أنها تقال للطبيب والقاضي أيضاً، ولا تخص المعلمين وحدهم. أما كلمة دوزوDoozo فتعني: «تفضل، رجاء». وفي مجرى الحديث، لم يكتف الصديق العزيز بذلك، بل أضاف مشجعاً: «إن كنت راغباً بتعلم اليابانية فسوف تجد هنا الكثير من المعاهد الرسمية والخاصة.

وخلال رحلتي الجوية إلى طوكيو، كنت أشعر بشغف الطالب القادم للدراسة والاطلاع على ذلك الشرق العظيم باهتمام ورهبة، أكثر من كوني شاعراً قادماً لتدريس الأدب العربي. وكم لمت نفسي لضياع الوقت، حين مرت السنة الأولى خطفاً بين

النزهات والأسمار واللقاءات، ولم أتمكن من البدء بتعلم اللغة إلا في السنة الثانية، وكانت الخسارة مضاعفة، على المستوى الاجتماعي والثقافي، ولا سيما في المسرح والسينما... وهذه قصة جديرة بحديث مستقل، ولعلها ستأخذ مكانها المناسب.

عاصمة الشرق

كان الأستاذ نوتوهارا ينتظرني في قاعة الاستقبال. سلام أليف عاجل بكلمات معدودة، بعيداً عن تكاليف العناق والاحتضان، فلا مكان هنا ولا وقت للعواطف العربية الفياضة.. وسرعان ما هبطنا في أحد المصاعد الضخمة إلى المرآب حيث كانت سيارته في انتظارنا (وهي من نوع لاند كروزر). وضعنا الحقائب من الباب الخلفي، وهممت بالتوجه إلى الباب الأيمن، لكنه أشار إلى الباب الأيسر وطلب مني أن أصعد إلى جانبه، موضحاً أن نظام السير عندهم «يساري»، كما هو في بريطانيا والهند وأستراليا. أخذنا مقاعدنا وانطلقنا نحو طوكيو، والساعة تقترب من منتصف الليل.

من مطار ناريتا، ونحن ننطلق نحو العاصمة، راح الربيع يستقبلنا بهدايا أشجار الـ ساكورا. قال الأستاذ الصديق: «يسرني أنك جئت في أوان أزهار الكرز.. وسترى غداً أنها

أشجار مكلَّلة بأزهار بيضاء توشِّيها لمسات وردية شفيفة. هذا الموسم يمتد في العام من أوائل مارس (آذار) في الجنوب إلى ما بعد أبريل (نيسان) في الشمال. وفي موسم النُّوَّار هذا سترى كيف يحتفل الناس.. وستشاركنا بذلك، فالطبيعة بكل ما فيها من جمال وثراء وتنوع هي أمنا جميعاً...»

كانت الطريق شبه خالية من السيارات أمامنا، وقد قطعنا المسافة في أحاديث شتى، مفيدة وممتعة. وحين دخلنا أحياء طوكيو فوجئت بأنها لا تزال متوهجة الأضواء وكأنها ترفض أن تنام. وصلنا المساكن الخاصة بالأساتذة الأجانب في حي كِتشيجوجي وكنا نستقبل الساعات الأولى من يوم الجمعة ٤/٩ من سنة الديك توري حسب الأبراج الصينية*. وقد استغرق المشوار نحو ساعتين.

كيف أتخلى عن الحمل الوديع لأدخل في ريش الديك الزاهي وغروره القيصري المضحك، ذلك أمر سأتركه لمواقع النجوم وحكم الأبراج وأساطير الشعوب. لكني سأدرك بعد أسابيع أن طالعي مع الحمل الشهري سيتحول إلى جرذ سنوي، يسمونه نيزومي وفق الفلك الصيني الذي يعملون به.

المسكن الذي كان يتنظرني واحد من مجمع يضم تسعة مساكن مبنية في كتلتين متجاورتين، ومنفصلتين بشريط من

الخضرة والأزهار، وهما مخصصتان لسكن الأساتذة الأجانب. فتح الصديق الباب الحديدي ودخلنا. في جانب العتبة، إلى اليسار، خزانة صغيرة للأخفاف. خلعنا أحذيتنا وتناول كل منا خفيه. قال الأستاذ موضحاً: «لا يجوز انتعال الحذاء في داخل البيت الياباني، ولا ينبغي تجاوز العتبة إلا حافياً أو بالخف الداخلي. وكذلك الأمر في الفنادق والمطاعم التقليدية». المسكن مؤلف من طابقين متصلين بدرج داخلي. وضعنا الحقائب على عجل في المكتب الصغير، إلى يمين العتبة، وصعدنا السلم الخشبي إلى غرف النوم. وحول فسحة الدرج العليا ثلاث غرف للنوم، غرفتان صغيرتان إلى اليمين وغرفة كبيرة إلى اليسار، والحمَّام في مواجهة الدرج بين الجناحين.

كنا متعبين، فأويت إلى أقرب غرفة، وأوى الأستاذ الصديق إلى الغرفة المجاورة، وسرعان ما أخذني ملاك النوم بين أحضانه، لأنهض باكراً على أصوات الغربان. لم أرتح لتلك المعزوفة المشؤومة وهي تستقبلني وتخدش سمعي وتعكر مزاجي بنعيقها في أول صباح ياباني، لكني حاولت أن أواسي النفس بأني في كوكب جديد، بين كائنات غريبة، وأمام ثقافة لا بد أن تكون مفرداتها ذات دلالات ورموز مختلفة.

تناولت من حقيبتي كتاباً عن اليابان، وقد أمضيت ليلتي

الأولى في «عاصمة الشرق» الرابضة على حافة المحيط الهادئ. كانت هذه العاصمة قرية صغيرة لصيد السمك اسمها إيدو، ثم صارت مقر الحاكم العسكري الذي يطلق عليه رتبة شوغُن، وهذا النظام الجديد بدأه ميناموتو (يوريتُمو) في بلدة كاماكورا واستمر تحت إمرة العديد من القادة والعائلات. وليس لنا أن نتصور أن توحيد اليابان جرى بالتراضي وبوس اللحى، ولكن إنجازه لم يتحقق إلا بعد حروب أهلية ومعاناة أهوال من العنف والحرق والدمار. ولعل أشهر القادة العسكريين وأعظمهم مكانة وتقديراً إياسو من أسرة توكوغاوا التي استمرت في الحكم ما يزيد عن ٢٦٠ سنة، وهو حكم تراتبي يجمع بين السلطة العسكرية والإدارة الإقطاعية، وتعد هذه الحقبة من أعظم مراحل الاستقرار السياسي في تاريخ اليابان القديم، رغم الصراعات والكوارث التي سبقتها.

ولهذا الحاكم العسكري العظيم قصة أشبه ما تكون بالأسطورة. ذلك أن الفضل في توحيد اليابان، ما بين بداية الربع الأخير من القرن السادس عشر ومستهل القرن السابع عشر، يرجع إلى ثلاثة من كبار القادة العسكريين الذين توالوا على حكم اليابان: أولهم أودا (نوبوناغا)، وثانيهم تيوتومي (هيديوشي)، وكان الثالث توكوغاوا (إياسو) أعظمهم. ويروى

أن كلاً منهم كان له رأيه الخاص في حل مشكلة مستعصية: هناك بلبل لا يغني، فكيف تحلّونها يا سادة؟ رأى الأول أن يقتله ويرتاح منه إذ لا فائدة من وجوده، ورأى الثاني أن يرغمه على الغناء بالقوة، بينما رأى الثالث أن يعامله بالصبر والتروي حتى يغني من تلقاء نفسه. وسواء كانت هذه القصة واقعة تاريخية أو من نسج الخيال، فإن إياسو يعتبر أعظم هؤلاء القادة، وربما كان المزار الذي يؤوي رفاته في مدينة نِكُو من أروع معابد الشنتو ومزاراتهم.

في صالة الطابق الأرضي تناولنا فطوراً حافلاً بألوان الشراب والطعام، بدءاً من عصير الفاكهة الشهي.. وليس انتهاء باللبن المُحلَّى بالعسل والموز. ثم توجهنا إلى محطة القطار. من زقاق البيت تصل إلى شارع عرضاني، تعبره إلى زقاق آخر، ثم تدخل في شارع مسقوف يشبه سوق الحميدية في دمشق، اسمه «طريق الشمس»، وفي وسطه مؤسسة استهلاكية كبرى من عدة طوابق سوف أتزود منها بكل ما أحتاج. وفي نهاية هذا الشارع ساحة وموقف للباص، ومنها إلى مدخل المحطة حيث يجري كل شيء آلياً: من شراء التذاكر إلى السماح بالدخول، ثم الانتقال على السلالم المتحركة صعوداً وهبوطاً.

مقهى سوافور بطرازه الفرنسي يقع قريباً من مدخل

المحطة الشمالي. وقد جرت العادة أن أرتاد هذا المقهى يومياً، وأنا عائد من الجامعة أو خلال العطلة الأسبوعية، وغالباً ما يكون بصحبتي الأستاذ فردوسي. وسوف يكون ذلك المقهى أيكة حميمية لضرب المواعيد ولقاء الأحبة والأصحاب.. وحتى معلمات اللغة والضيوف العابرين، على مدى السنوات الثلاث القادمة. وسوف أكتشف بعد أيام، أن تحت المحطة مؤسسة استهلاكية كبيرة، وأن على مقربة منها مكتبة ضخمة وأنواعاً شتى من المقاهي والمطاعم: يابانية، صينية، هندية، إيطالية، فرنسية، وأمريكية. وإلى جنوب المحطة زقاق يؤدي إلى حديقة إنوكاشيرا، وعلى جانبيه أكثر من مقهى ومطعم. وكان يطيب لي أن أتجول في ممرات تلك الحديقة وتحت أشجارها وحول بحيرتها المتشكلة من نهر كاندا.

أهمية المحطة

اسم القطار الأول الذي أقلنا إلى الجامعة تشوؤو Chuo ولونه برتقالي، لا يمكن أن أنساه ما دمنا في صحبة يومية. وقد انطلق بنا، ونحن وقوف من شدة الازدحام. كانت سكته، في بعض الطريق، بارتفاع البيوت اليابانية المؤلفة من طابقين. أشار الأستاذ إلى عدد من المساكن التي نعبرها قائلاً: «انظر إلى أعشاش الأرانب»! لا أدري إن كان يمزح أم

يعبر عن واقع صارم، ولم تكن مسافة الحذر البدوي الممتدة بيننا تسمح لي بسؤاله عن دلالة الوصف وما يكمن وراءه من معنى دقيق. لكني سوف أسمع هذه العبارة تتردد على ألسنة عديد من الغربيين. مررنا بعد كتشيجوجي بأربع محطات، وفي الخامسة شِنْجكو Shinjuku انتقلنا إلى قطار فضي مزين بشريط أخضر فاتح يطوِّق الخصر؛ هذا ياما ـ نو ـ تِه سِنْ Yama-no-Te Sen، وأحياناً يحذفون أداة الإضافة (نو) ويقولون ياما ـ تِه ـ سِنْ. وسأتعلَّم بعد أيام من الأستاذ فردوسي أن ياما معناها: «جبل»، وأن تِه: «يد»، وأن سِنْ: «خط السكة». وهذا يعني أنه خط يد الجبل. خط شبه دائري، مؤلف من ست وعشرين محطة أو نحو ذلك، وهو يكاد يحيط بأحياء طوكيو القديمة كلها.

بعد خمس محطات أخرى هبطنا في سوغامو، وتابعنا سيرنا قليلاً لندخل في حديقة. وأنا أذكر هذه المحطات لأني سأعبرها مرتين كل يوم من أيام عملي في الجامعة، وعلى مدى ثلاث سنوات. وهذا يعني أن لها مكانة خاصة في القلب والذاكرة. وهناك عدة أزقة تؤدي من المحطة إلى الحديقة، وهي جميلة حافلة بالأشجار والأزهار وأحواض الرخام المنتشرة على جوانب الممرات. أخذ الأستاذ يلتقط لي صوراً تحت أشجار الساكورا الزاهية بأزاهيرها. وحين سألته عن اسم الحديقة

فوجئت بقوله: «هذه مقبرة وليست حديقة، وعلينا أن نعبرها إلى الطرف الآخر حتى نصل إلى الجامعة... إنها مقبرة سوميه وهي تحتضن رفات العديد من أدباء اليابان». وخلال السنوات التي أمضيتها هناك، كانت تلك الروضة الغناء، بجوها الهادئ ونسيمها الندي وجيرة لفيف من المبدعين الهاجعين في تربتها، من المواقع الأثيرة في طريقي الصباحي إلى الجامعة، وكذلك في طريق العودة أحياناً.

ليس بعيداً عن محطة سوغامو يقع معبد صغير، كان يطيب لي أن أرتاده لأتأمل السيدات المتقدمات في السن وهن يسكبن الماء على تمثال بوذا بأقداح خشبية ذات ذراع بطول نصف متر أو أقل، لكي تتمكن السيدة من سكب الماء على الرأس. ويقولون إن ذلك المعبد خاص بإسعاف المرضى وتماثلهم للشفاء. وبعد بضعة أسابيع سيدلني الأستاذ فردوسي على مكتبة شرقية بالقرب من محطة كوماغومِه الواقعة بعد سوغامو، وكان له الفضل بتقديمي إلى قيِّم المكتبة والحصول على بطاقة الدخول والبحث بين كتبها والاطلاع على ما شئت من ذخائرها. وقد أتاحت لي هذه المكتبة، وما فيها من مجلدات تراثية ومراجع نادرة، أن أطّلع على العديد من الكتب المحظورة في معظم البلاد العربية، منها ما هو ديني، سياسي، وحتى تاريخي.

محطة القطار أهم معلم في المدينة اليابانية. هي مركز الحي أو الحارة، كالمسجد في المدينة العربية الإسلامية. ومعرفة المحطة تدلك على أي مكان تقصده، وما عليك إلا أن تحدد الجهة والمخرج المؤدي إلى مقصدك، وإلا فسوف تخبط كالعشواء في متاهة متعبة. وحول المحطة تقوم الأسواق والشركات والبنوك والمؤسسات الاستهلاكية الضخمة ومرافق الخدمات، وبعد ذلك تأتي مباني السكن والحدائق والمجمعات الرياضية. ومن هنا تأتي أهمية الدراجة الهوائية للانتقال بين البيت والمحطة والأسواق. كما تقوم الباصات العامة بالنقل أيضاً في الأحياء البعيدة عن سكة القطار. وكان في تصوري أن في طوكيو وحدها ما لا يقل عن ألف محطة للمترو والقطارات، ولقد حاولت أن أحصي عدد المحطات من خلال تنقلاتي فلم أفلح تماماً، لكن العدد من خلال الخرائط والمصورات قارب ١٢٠٠ محطة أو يزيد قليلاً!

والطريف في قصة القطارات ما يشاع بين الناس عن بدايات مشروع السكك الحديدية التي يعود تاريخها إلى أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر. فقد أبديت إعجابي بنظام القطارات لديهم أكثر من مرة، والغريب أني تلقيت أكثر من جواب يفيد أن البريطانيين اعتذروا عن الإسهام في بناء تلك الخطوط، لأن الأرض اليابانية معرضة للزلازل.

لكن التاريخ يؤكد أن المشروع انطلق وازداد تنامياً واتساعاً بفضل المهندسين الإنجليز في البر الرئيسي، والأميركيين في هوكّايدو بالشمال. وخلال عشر سنين استطاعت العبقرية اليابانية أن تتجاوز تلك المشكلة الفنية بثقة ونجاح. ونظراً لضيق الأرض في طوكيو، فضلاً عن غلائها الخرافي، ترى أن كثيراً من المؤسسات والمطاعم والمقاهي والمحلات التجارية قائمة تحت المحطات الكبرى.

ويمتاز القطار الياباني بأن كل عربة مستقلة بمحركها الكهربائي عن العربات الأخرى، أي أنه لا يعتمد على قاطرة رئيسة تجر سائر العربات. وغالباً ما كنت أختار، في العديد من النزهات، العربة المجاورة لقمرة السائق، أقف وراء زجاج النافذة التي تفصل بيننا وأتامل السكة الممتدة أمامنا وما جاورها من خلاء وعمران، والقطار يمضي بسرعة تبلغ ٧٠ كيلومتراً كحد أقصى بين محطة وأخرى داخل المدينة. ولا أذكر أن السائق التفت إلى وراء، ولم تلتق نظراتنا ولو مرة واحدة بالمصادفة، خلال تلك التنقلات، على كثرتها، مع أن الطريق آمن ونظام السكك الحديدية باتجاهين: خط للذهاب وآخر للإياب. لكن التزام الواجب ومسؤولية العمل فوق كل مزاج طارئ أو رغبة شخصية.

ولا تقتصر أهمية القطار على العاصمة وحدها، لكنه وسيلة النقل والسفر الأولى بين المدن وفي داخلها. وهناك خط سريع للمسافات البعيدة بين المدن اسمه شِنْكانْسِنْ Shinkansen ومعناه (الخط الرئيسي الجديد) ويسمونه بالإنجليزية الطلقة، تعبيراً عن سرعته الفائقة. إذا كنت تحفظ اسم المحطة التي تتجه إليها فلا تخف من التيه أو الضياع، مهما هدرت من وقت في الشوارع المحيطة بها. وإذا لم تكن من المولعين بحمل الخرائط، يكفي أن تهبط إلى أقرب محطة لتطالع خريطة القطارات بالتفصيل معلقة على الجدار. هنا كل شيء منظم بدقة إلكترونية مدهشة، لا تقبل الخلل ولا عبث الارتجال أو رحمة المصادفة، كما أنها لا تسمح بالتنجيم ولا رصد الطالع وقراءة الفنجان. لكن الغريب أعمى- كما يقول المثل الشعبي- ولهذا الاستدراك حكاية لا تخلو من طرافة، وإن كانت محفوفة بالتعب والخيبة والاعتماد على شهامة البوليس.

ضياع في رُبُونغي

تبدو طوكيو بسيطة متواضعة في طرازها العمراني، إذا استثنينا عدداً من أحيائها المركزية والمتميزة بأبراج يرتفع بعضها ٦٠ طابقاً. والزائر الوافد من الغرب تفاجئه المدينة ولا

يخفي استغرابه، إذا لم أقل سخريته. وكثيراً ما سمعت منهم: «هذه ليست عاصمة ولا حتى مدينة عصرية، رغم ناطحات السحاب في وسطها، إنها مجموعة من القرى والمزارع المتجاورة!

وطوكيو كانت قرية صغيرة لصيد الأسماك اسمها إيدو Edo أو ييدو Yedo، وقد جعلها توكوغاوا (إياسو) مقر حكمه العسكري في ١٦٠٣، واستمر حكم أسرته فيها من بعده حتى ١٨٦٧، وقد تعرضت مراراً للحرق والدمار بفعل الحروب أو الزلازل والأعاصير. ويوم استرد الإمبراطور ميجي عرش اليابان في سنة ١٨٦٨ ليبدأ عصر الانفتاح والنهضة الحديثة، نقل بلاطه إلى إيدو وأطلق عليها اسم طوكيو، أي عاصمة الشرق أو العاصمة الشرقية، تمييزاً لها من عاصمته السابقة كيوتو الواقعة في غرب البلاد.

تقول لغة الأرقام إن طوكيو تمتد من شرقها إلى غربها مسافة مترامية تقارب ٩٠ كيلومتراً، أما عرضها من الشمال إلى الجنوب فهو في حدود ٢٥ كيلومتراً. المدينة القديمة في الشرق مؤلفة من ٣٢ حياً يلحقون باسم كل واحد من هذه الأحياء مقطع كو ku باليابانية، لتمييزها عن الأحياء الجديدة في شطرها الغربي، وهو مؤلف من ٢٦ مدينة: شي shi، وثلاث

بلدات: ماتشي machi، وقرية واحدة: مورا mura. وفيها حدائق واسعة وتلال وحقول زراعية وعدة أنهار وروافد. وقد طفت عبر بعض حقولها على الدراجة الهوائية، وأنا في طريقي إلى المسبح البلدي، ولم تكن المسافة تستغرق أكثر من ثلث ساعة عن مسكني.

وفي بعض الأحيان كنت بصحبة كوكبة من الجميلات اللواتي أوجز لنا أبو حيان التوحيدي حضورهن البهي في عنوان كتابه «الإمتاع والمؤانسة». ولعل التكريم الغامر الذي حظيت به في جامعة طوكيو أنهم جمعوا محاضراتي الأسبوعية كلها في ثلاثة أيام، تاركين لي أربعة أيام لأحياها في التجوال والاستطلاع والتأمل، كما يحلو لي. وأطرف ما تمر به في طريق العودة من المسبح، أن تقف على رأس الحقل وقد وضعوا كومة من فواكه الموسم وخضاره، وإلى جانبها ورقة تحدد السعر وكيساً لوضع النقود، ولا أحد في الحقل للمساومة واستلام النقود، إنما تأخذ حاجتك وتضع الثمن في الكيس وتنطلق من جديد إلى بيتك.. وأنت تردد في نفسك: «جميل أن تكون في اليابان.. وأن تتعلم الحياة وأصول المعاملة الحضارية المثلى.»

في نهاية الأسبوع الأول، دعاني الصديق الأديب الدكتور

أمين إسبر، سفير سوريا، إلى الغداء. سألته عن العنوان فأحالني إلى السكرتيرة اليابانية لتدلني. أخبرتني الآنسة المستعربة بصوتها الناعم وأسلوبها الرقيق: لون القطار الذي سآخذه أولاً، في أي محطة أغادره لآخذ قطاراً آخر من لون مختلف، ثم النزول أخيراً في محطة ربُونغي Roppongi، ولم تنسَ أن تزودني بدرس في اليابانية قائلة: «روبُونغي» تعني ست شجرات! وحين سألتها: «وبعد ذلك؟»، أجابت ببساطة: «تأتي إلى السفارة، وسعادته سيكون بانتظارك».

كانت الساعة نحو الواحدة، وقدرت أن المسافة لن تستغرق كما علمت أكثر من ساعة. وتخيلت أن مبنى السفارة سيكون على مقربة من تلك المحطة، وليس على مسافة ثلث ساعة سيراً حثيثاً في أكثر من شارع، كما سأكتشف بالخبرة العملية وطول المعاناة فيما بعد!

فوجئت بأن للمحطة أكثر من بوابة للخروج، وكل بوابة في اتجاه يؤدي إلى شارع مختلف، والدليلة العزيزة لم تخبرني أي البوابات أختار. وهكذا بادرت إلى أقرب سلم متحرك صادفته في طريقي، صاعداً من جوف الأرض إلى سطحها. وأول ما واجهني في الشارع مقهى اسمه «أرموندو». ولم أكن لأنسى أبداً هذا الاسم المأخوذ من الإنجليزية Almond، خصوصاً

أن اللوز من أطيب الثمار، غضاً ويابساً، ولكنه كان في ذلك اليوم لا يخلو من مرارة، إن لم أقل نذير شؤم وبداية ضياع!

مشيت في شارع عريض ورحت أبحث عن علم بلادي، ولكن بلا جدوى. حاولت الاستعانة بالخريطة التي أحملها، وسألت في مخفر البوليس، وهو مقصورة صغيرة متميزة الطراز في الشوارع، فلم يجد الرجل غير سفارة سريلانكا، ولم تكن سوريا قريبة منها إلا في الخريطة التي أحملها، وقد اكتشف الشرطي الودود أنها نسخة قديمة. ويبدو أن السفارة انتقلت إلى مكان آخر لم يستطع تحديده، رغم استخدام الهاتف وسؤال زملائه في مخافر أخرى. كنت قد نسيت رقم الهاتف في البيت، وهكذا واصلت خبط عشواء في تلك المتاهة. خطر لي أن أدور حول المحطة وأستكشف العديد من الأزقة والشوارع، باحثاً عن علم بلادي. وتابعت المغامرة حتى شعرت بالتعب فرجعت إلى مقصورة البوليس. ولم يكد يلمحني الرجل حتى خرج إشفاقاً على شيبتي، وعاود استخدام هاتفه من جديد، ولكن...

رب مصادفة خير من ألف ميعاد. كنت قد أضعت ساعات من الدوران والاستطلاع والتسآل، ثم رجعت خائباً خجلاً إلى ذلك الشرطي الكريم. وبينما كنا واقفين نتبادل نظرات الحيرة أو نرتقب نجدة الهاتف، رأتنا سيدة خارجة من سفارة

سريلانكا، ويبدو أنها سمعت طرفاً من حديثنا.. أو أنها قرأت سحنتي الغريبة ومرارة خيبتي، فبادرت لإسعافنا. كانت تعرف أن السفارة السورية انتقلت، ولم تلبث أن أعطت الشرطي العنوان الجديد، فأشار الرجل لسائق سيارة أجرة، وطلب منه إيصالي إلى المكان المطلوب. شكرت السيدة بامتنان، وكانت كلماتها المطعمة بابتسامة ندية لا تنسى أطيب سلوى وأجمل عزاء.

وأمام بوابة السفارة، كان الدكتور أمين ينتظرني وقد مر على موعد الغداء ما يقارب ثلاث ساعات! وأشرق وجهه الصبوح وقال: أن تصل متأخراً، مهما كانت الأسباب، خير من الرجوع والاعتذار. ثم اقترب مني، بعيداً عن مسمع السكرتيرة، وهمس: خفت أن تكون إحدى الجميلات خطفتك.. الشعراء لا يتوبون عن العشق، ولو في الصين أو اليابان! وفي مسكنه القريب، كانت السيدة أم هوازن تنتظرنا باستقبالها الودي الكريم، وقد أعدت لنا مائدة حافلة بألوان الطعام الشامي الشهي.

وبعد نحو ساعتين من كرم الضيافة والمؤانسة واسترجاع الذكريات الحميمة، قمنا بجولة اطلاعية في ذلك الحي. ومن أبرز معالمه السفارات، ومعرض للسجاد الإيراني، وكذلك فندق أوكرا Okra، ويبدو أن صاحبه كان مولعاً بالباميا حتى

أطلق عليه ذلك الاسم. وخلال مشوارنا الأنيس، مررنا بأكثر من محطة قطار، ولعل الصديق العزيز أراد بقصد أن يكون دليلي حتى عرفت طريق السفارة جيداً، ولا يمكن أن أضيع مرة ثانية في متاهة روبوّنغي.

والدكتور أمين إسبر زميل قديم في اتحاد الكتاب وأستاذ جامعي في القانون الدولي. وفي بدايات عملي في الصحافة الثقافية، كان يعمل محرراً ثم رئيساً للتحرير في أسبوعية «الاشتراكي»، صحيفة اتحاد العمال بدمشق. إنسان هادئ عميق التفكير ومثال اللطف والدماثة والخلق الكريم. كانت صحبة طيبة متجددة في طوكيو امتدت شهوراً، قبل أن يعود إلى دمشق بطريقة لا تخلو من مراوغة الثعالب ومكائد الذئاب التي تختار ضحاياها دائماً من الشرفاء المخلصين. وخلال أحد مشاويرنا، أخذ يحدثني بمرارة عن مسؤولين كبار سطوا على كثير من مضمون كتابه – رسالة الدكتوراه في القانون الدولي – وحصلوا على شهادات عليا، واقتنصوا مراكزهم ببراعة متسلقي الجبال، دون أن يكلفوا أنفسهم أقل إشارة إلى كتابه المطبوع وجهده العلمي. وربما كان السبب أنهم لا يملكون فضيلة الشجاعة ولا نعمة الاعتراف بجهود الآخرين وفضائلهم. وكان يستغرب، إلى حد الاستنكار، أن ينحدر

الإنسان العربي المتعلم إلى مثل هذا الدرك الأخلاقي الفظيع.

ومما يثير الغصة الجارحة في نفسي، وأنا أكتب هذه الكلمات، أن ذلك الصديق الحميم رحل باكراً.. وآخر عمل دبلوماسي له كان في صنعاء. وإذا كان رحيل الأصدقاء الأعزاء يأخذ قطعة من نفوسنا ويملأ مكانها شجناً وحسرة، فإن أعمالهم الأدبية تنقش آثارهم في لوح الزمن، وأطيافهم تزهو حاضرة في الذاكرة، بكل وهجها وصفائها، تجددها الحياة وتزيدها مواكب الأجيال قيمة وجلالاً ومحبة.

.....

كانت تجربة التيه في ربُونغي حافزاً قوياً لاكتشاف ما أمكن من أحياء طوكيو: جزى الله الشدائد كل خير، كما تقول الحكمة الشعرية. خطر لي أن تكون البداية من حي تْشِيودا، في قلب العاصمة، وفيه القصر الإمبراطوري الذي لا يفتتح أبوابه للزوار إلا في أيام معدودة: في ٢ يناير (كانون الثاني) - تحية السنة الجديدة، و٢٧ ديسمبر (كانون الأول)- عيد ميلاد الإمبراطور. لكن هذا الخاطر لم يتشكل في برنامج محدد، فتركت رغبة الاستكشاف لرياح المصادفة. حديقة هيبيا المجاورة للقصر في الجهة الغربية من ذلك الحي كانت منتجعاً جميلاً للتنزه والاستجمام أحياناً. ويذكر التاريخ الحديث أنها

كانت موقعاً للتدريبات والعروض العسكرية في عهد ميجي، لكن ذلك الموقع تحول إلى ميدان عام. وفي الحديقة نوافير وأكشاك ومكتبة، وحتى مسرح لتقديم الحفلات الموسيقية. كما أن فيها هدايا من دول العالم، ومنها تمثال ذئبة روما وهي ترضع الطفلين روموس وروموولوس اللذين بنيا العاصمة الإيطالية، كما تقول الأسطورة.

وتطل على الحديقة من بعض جوانبها أبراج مشيدة على النمط الغربي، ونظراً لقربها من القصر الإمبراطوري ومباني الحكومة، فقد كانت مسرحاً للتظاهرات والاحتجاجات الشعبية. ويقال إن أعنف مظاهرة شهدتها الحديقة كانت في سنة ١٩٠٥ احتجاجاً على معاهدة (بورتسماوث) مع روسيا، ويروى أن المحتجين أتلفوا يومئذ نحو سبعين بالمئة من مراكز الشرطة.

وفي هذا الحي أيضاً المتحف الوطني للفن الحديث، ومزار ياسوكوني، وهو معبد شنتو أقيم في عهد ميجي، تكريماً لمن ضحوا في سبيل عرش الأقحوان. وتقع شِنْجُكو في حي مجاور، وكانت محطتها في منتصف طريقي اليومي إلى الجامعة، وفيها أكبر شبكة من خطوط السكك الحديدية، وعلى مقربة من إحدى بواباتها الجنوبية مكتبة ضخمة من ثمانية أدوار،

أحدها مخصص للكتب باللغة الإنجليزية، وحول المحطة مرابع الياكوزا* (المافيا) ونوادي الليل وعديد من الفنادق والمطاعم وناطحات السحاب.

ومن هذه الناطحات برج سوميتومو، وهو من أعلى مباني طوكيو، ويتميز بشكله مثلث الأضلاع. وأول ما يشد نظر المتجه إلى المصعد في الطابق الأرضي لوحة كبيرة تضم مجموعة من الديوك بألوانها الزاهية المختلفة. لقد وقفت تحتها وتأملتها عشرات المرات، ولا أدري إن كانت نوعاً من الدعاية للبنك المجاور الذي يحمل المبنى اسمه. إن رمز الديك في جنوب شرق آسيا مستوحى من هذا الطائر الجميل الذي يبشر بالفجر وزوال العتمة. لكن الهاجس الشعري أمام تلك اللوحة كثيراً ما أوحى لي أن أثرياء اليابان مولعون بالديوك. وكان يطيب لي أن أطوف المعرض الفني المتجدد في الطابق الخمسين منه، وحوله أكثر من مطعم. وغالباً ما كنت أرتشف القهوة في الطابق الثاني والخمسين، وأمامي نافذة تطل على الأفق الشرقي المترامي. لكن رهاب المرتفعات لم يفارقني يوماً، وكنت أتحاشى الاقتراب من الحاجز المقام بارتفاع نصف القامة حول وسط البرج الذي يشكل هوة رهيبة مثلثة الأضلاع، ومن حولها واجهات المطاعم والمقاهي ومداخل المصاعد.

وهناك مبنى البلدية المجاور، وهو ناطحة سحاب أخرى مؤلفة من برجين توأمين، وهما متصلان حتى الكتفين، بينما ظل الرأسان والعنقان مشرئبين إلى السماء. وكنا نصعد إلى الطابق الثامن والأربعين لنلقي نظرة من تلك الإطلالة المشرفة على قوس واسع من أحياء طوكيو.

هاتشيكو Hachiko

بعد قصة الضياع، أشفقت علي زميلة لطيفة من محبي اللغة العربية ودارسيها، كما أنها تعمل مترجمة في إحدى المؤسسات. ولعلها تطوعت كرماً منها، أو بتكليف ودي من الأستاذ العزيز نوتوهارا، أن ترافقني بين حين وآخر. وقع اسم الزميلة لم يرق لي فأسميتها هاروكو فلم تعترض، ولعلها لم تسمع اقتراحي أو أن اللفظ التبس عليها فلم تحفل به. والاسم مستوحى من الربيع[1]. ومع أنها أخبرتني ببساطة أنها تحب يوسف إدريس، دون أن تحدد درجة الحب أو توضح اتجاه البوصلة نحو الكاتب أو أعماله، فقد كنت موقناً أن العشق محظور في المدارس والجامعات اليابانية؛ لذلك اعتبرتها جارتي وغضضت الطرف اقتداء بمأثور عنترة. وكانت نصيحة

(١) الربيع: هارو Haru وغالباً ما يضيفون مقطع (كو) ko إلى أسماء الإناث تحبباً ودلالاً. والمقطع ذاته أضافوه إلى اسم الكلب بعد وفاة صاحبه من باب التحبب ذاته، وهذا المقطع قريب من صيغة التصغير تحبباً وإعجاباً في العربية.

الصديق الشاعر وفيق خنسة تؤكد أن هناك ثلاثة محظورات: الإساءة للإمبراطور، عشق الطالبات أو الزميلات، وأية علاقة مع الجيش الأحمر الياباني.. وكنت أضيف محظوراً رابعاً، وهو الابتعاد عن السكارى ومجالسهم.

لقد ساعدتني هاروكو مشكورة في عدة جولات، ويسرت لي الانتقال بين المحطات والأحياء بلا مغامرة ولا خشية من ضياع آخر. ومنها عرفت محطة طوكيو الضخمة، وعلى مقربة منها تقع أكيهابرا، مدينة الأدوات الكهربائية والإلكترونية بكل أنواعها. كانت السيدة مستعربة درست في مصر وعشقتها، بلداً وشعباً وحضارة عريقة، وهي تحلم أن تعود لمتابعة دراستها العليا متخصصة في أدب إدريس، كما أنها معجبة بمسرح محمود دياب وأفلام يوسف شاهين.

لكن وقتها لم يسمح بمرافقتي أكثر من مرتين في الأسبوع، ولم تتجاوز رفقتنا شهراً، ذلك أن مدينة تتمتع بشبكة واسعة من السكك الحديدية، والخرائط متوفرة، سرعان ما تصبح أليفة مفتوحة الذراعين لك حيثما حللت وأينما توجهت. لكن فضل تلك الزميلة لا يمكن أن ينسى، وما زالت تشغل مكانها في الذاكرة، ولها رصيدها من المودة والاحترام في الوجدان، وإن أسهمت بعض الرياح الموسمية وتقلبات الجو الغامضة

في برودة العلاقة بيننا فلم تعد أكثر من إيماءة الرأس بتحية عاجلة من بعيد، دون أن أدرك سبباً منطقياً لتلك البرودة، لكني أرجعتها إلى طبيعة الأرض الحبلى بالزلازل والمناخ المحكوم بالأعاصير.

في تلك اللقاءات الندية، تنقلنا بين العديد من المكتبات والمطاعم والحدائق والمعابد والمقاهي، وكنت حريصاً على أن يكون في حقيبة يدي كتاب طوكيو وخرائط خطوطها الحديدية، لأضع علامة صغيرة لدى كل محطة نزلت فيها أو صعدت منها إلى القطار. وفي العطلة الأسبوعية، خابرتني واقترحت أن نشاهد فيلماً أميركياً جديداً في إحدى صالات السينما. رحبت بالفكرة، خصوصاً أني لم أكن مرتبطاً بأي موعد آخر. ولم يكن موعدنا الجديد في منجاة من الضياع، وإن لم يستغرق ضياعي أكثر من عشر دقائق. فقد أخبرتني أن أنزل في محطة شيبويا، وهي من الأحياء القديمة المشهورة. وهناك، على مقربة منها تمثال أو صورة كلب، وهي ستكون بانتظاري. قلت لها مازحاً: أخشى أن أضيع في تلك الشيبة واستدركت ضاحكا: أقصد شيبويا أعجبتها لعبة الكلمات المتشابهة وقالت: لا تخف، الشباب لا يضيعون معي.. فكيف الشيبة؟

حين سمعت منها كلمة «كلب»، تصورت أنها تقصد «قلب»، وقد تناهى اللفظ إلى سمعي ملتبساً بين الكاف والقاف. إن الذين يقلبون اللام راء في لفظهم، قد يخلطون بين القاف والكاف أيضاً. المهم أن أنزل في المحطة المطلوبة وسأجد أمام أحد المراكز الصحية لوحة «القلب والرئتين.. وكل وسائل الإيضاح المتعلقة بعلم التشريح»، فهي لا تعلم أني أضعت سنتين من شبابي أملاً في دراسة الطب.

قبل أن أخرج من المحطة، رأيت عبر البوابة العريضة أمواجاً من الشباب المحتشدين في الساحة أمامي. ولكي أتجنب ذلك الحشد الكبير، سرت بجانب الجدار مردداً في خاطري حكمة الأم: «امشِ الحيط، الحيط.. وقل: يا ستار!» لم تكن الساحة واسعة، فأخذت أدور في أطرافها، عابراً شوارعها المتصالبة، باحثاً في واجهات زواياها عن صورة «قلب» أو أي مركز صحي، خصوصاً أن لوحات عديدة من دعايات شتى كانت تغطي واجهات الأبنية وشرفاتها، ولا أثر للقلب الشريد. وأخيراً، بعد أن أنهيت جولتي الأولى حول الميدان واقتربت من الجمهور المحتشد بالمئات أمام المحطة، فوجئت بتمثال كلب وسيم يربض على قاعدته بزهو أمام المحطة، وكانت الدليلة العزيزة تقف بجواره، وإلى جانبها شاب في مثل سنها.

لم تكد هاروكو تلمحني قادماً حتى هتفت: «أريسان!»،

ثم قدمت صديقها المهندس الزراعي، وتم التعارف بكلمات معدودات. لم أجرؤ أن أخبرها بخيبتي، إنما بادرت إلى سؤالها عن التمثال الشامخ على قاعدته الرخامية وكأنه من فرسان العصور الوسطى. قالت: «هذا هاتشيكو، ألم تسمع بقصته؟» ولما قرأت ترددي، راحت تسرد القصة. إنه رمز المودة والوفاء. كان صاحبه الدكتور أوينو Ueno أستاذاً في كلية الزراعة في جامعة طوكيو، وقد اعتاد الكلب أن يرافقه إلى هذه المحطة، وينتظره هنا حتى ينتهي الأستاذ من عمله اليومي. وحين مات الأستاذ بأزمة قلبية مفاجئة، ظل صديقه الوفي أياماً ينتظره في طرف الميدان، هنا أمام بوابة المحطة حيث ترى التمثال».

الكلب مولود في مقاطعة أكيتا في الشمال الياباني، ونوعه معروف بهذا الاسم. وقد بدأت القصة في أوائل ١٩٢٤ يوم أحضر الأستاذ أوينو معه ذلك الكلب إلى طوكيو. ويقال إن هذا النوع من أشد الكلاب ولاء وإخلاصاً، وعددها قليل جداً في العالم. أطلق الأستاذ على كلبه اسم هاتشي، والكلمة تعني في اليابانية ثمانية، والرقم يرمز للثقة والطمأنينة وحسن الطالع. وبعد وفاة صاحبه في مايو (أيار) ١٩٢٥ أضافوا لاسمه مقطع (كو) محبة وتدليلاً، فصاروا يذكرونه باسم هاتشيكو.

بقي الكلب الوفي منتظراً عودة صاحبه إلى المحطة عدة

أيام، فأثار اهتمام الناس وشفقتهم في تلك الساحة وحظي بعنايتهم فصاروا يقدمون له الطعام. ثم جرى تسليمه إلى أقرباء الأستاذ، بعيداً عن طوكيو، فظل في رعايتهم مقيداً نحو سنة حتى ظنوا أنه اعتاد عليهم، فحرروه من القيد. لكنه سرعان ما هرب عائداً إلى بيت صاحبه، مواظباً على برنامجه السابق بانتظار الأستاذ في المحطة، أصيل كل يوم. ثم أوكل أمر الاهتمام به إلى البستاني الذي كان يعتني بحديقة بيت الأستاذ الراحل. صار اسم هاتشيكو، رمز الوفاء، على كل لسان بخاصة بين طلبة الأستاذ وأصحابه ومعارفه. ولم تلبث الصحافة أن اهتمت بقصته. وحتى الحكومة رأت فيه رمزاً وطنياً كبيراً فأقامت له هذا التمثال من البرونز أمام المحطة، قبل سنتين من موته، والجميل أن صاحب التمثال كان حاضراً بنفسه مشهد الاحتفال يوم رفع الستار، وإن بدا حزيناً لأن صاحبه لم يحضر!

عشر سنوات مرت على رحيل الأستاذ، تحول خلالها هاتشيكو إلى كلب بائس مشرد حول محطة شيبويا، يتعارك مع غيره من الكلاب، ويعاني من أمراض لم تلبث أن قضت عليه في ربيع ١٩٣٥. لكن القصة لم تنته بموته، بل حنطوه وحشوه ليبقى ماثلاً في متحف العلوم الطبيعية. وجاءت

الحرب العالمية فاضطروا إلى تذويب التمثال والاستفادة من البرونز في ساحات القتال. ثم عادوا بعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات فصنعوه وأقاموه من جديد. والسينما لم تغفل عن قصته، فأنتجوا فيلماً عنه سنة ١٩٨٧. وتورد الصحافة أن أحد نجوم السينما الأميركية كان مأخوذاً بقصته فأنتج عنه فيلماً آخر سنة ٢٠٠٩.

لكن الاهتمام بهذا الصديق الأوفى، من بين سائر الحيوانات، لا ينتهي عند قصة هاتشيكو وصاحبه الفقيد، فقد حظي برج طوكيو بقصة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها، وإن كانت مختلفة في ظروفها وأحداثها وأبطالها، وهي تدعو كذلك إلى التأمل والإعجاب. والبرج، بهيكله المعدني المشابه لبرج إيفل الباريسي، والقانع بارتفاع ٣٣٣ متراً، يقع في حي ميناتو، على مقربة من مزار زوجوجي الخاص بأضرحة توكوغاوا، وفي منتصفه إطلالة ومتحف ومطعم دوار ومحال للبيع. لكن رهاب المرتفعات حال دون صعودي إليه فاكتفيت بالتجوال حوله، بانتظار نزول الأصدقاء. ويبدو أن اختيار الرقم ثلاثة له جذور بوذية مقدسة، وكذلك الأمر في الأساطير الصينية واليابانية، وقد تكرر الرقم ثلاث مرات أيضاً.. وهذا له دلالة أكبر. وربما كان يرمز إلى الهدايا الثلاث التي قدمتها ربة

الشمس لحفيدها، كما أن الرقم يشير إلى الجسد والعقل والروح في كثير من تراث الشرق.

وأطرف ما في الفسحة المجاورة لقاعدة البرج مجموعة من تماثيل الكلاب، تحيط بها قصة مؤثرة. في سنة ١٩٥٨ اضطرت بعثة استكشافية في القطب الجنوبي أن تخلي موقعها على عجل في ظرف طارئ، وقد تركت خلفها ١٣ كلباً من النوع القطبي الخاص بجر الزلاجات. لقد تركوها مربوطة بالسلاسل ومعها قليل من الطعام، على أمل أن يعود إليها فريق إنقاذ بعد حين. لكن قسوة المناخ القطبي حالت دون ذلك، فبقيت الكلاب لتواجه مصيرها الرهيب. وفي السنة التالية، توجهت بعثة ثانية إلى هناك، لكنها فوجئت بأن كلبين من الفريق ما زالا يعيشان بصحة جيدة، وقد استطاعا التخلص من القيد فكانت حريتهما سبب نجاتهما، وفي ذلك ما فيه من رمز جميل ومؤثر، فلا حياة بلا حرية. وبعد فترة مات أحدهما في القطب، بينما رجع الآخر سالماً مع البعثة، وعاش في عاصمة الشمال سابُورو حتى ١٩٧٠.

وإحياء لذكرى ذلك الفريق ودوره الفعال في مرافقة البعثة والاضطلاع بأعباء تنقلاتها، أقاموا تلك الأنصاب تمجيداً لتلك المأثرة واعترافاً بذكاء هذا الحيوان الوفي وأهميته. ولعل الأمر جرى بدافع أخلاقي وكان التماساً لنوع من التأسي

والعزاء. لكن الطريف خلال زيارتنا للبرج أن أحد أصحابنا، وهو محاسب في إحدى السفارات العربية، كان واثقاً أنها كلاب محنطة فلم يرغب بملامسة أي منها، كما أنه لم يكتم إعجابه بمهارة اليابانيين في التحنيط. كنت أظن في البداية أنه شاب خفيف الظل يمازح أصحابه، لكنه حين راح يجادل بإصرار أحد زملائه، تبين لي مدى وثوقه وجديته، ولم يكن لخيالي أن يتمادى في شطحاته إلى درجة أن أتصور كائناً بمثل هذه السذاجة. ولما توجهنا للغداء في أحد المطاعم القريبة، أكد لي قناعته ورجاني أن أغسل يدي، لأني لمست رأس الكلب ولم أستمع لنصيحته. ولكي أريحه من ذلك الهم الثقيل، أكدت له أن من عادتي أن أغسل يدي قبل الطعام.

ولا شك أن طوكيو المتجددة باستمرار، كما هي حال معظم المدن في العالم، قد أبدعت مشاريع أخرى أهم وأعلى من هذا البرج. وتقول الصحافة اليابانية إن برجاً جديداً أقيم بارتفاع ٦٣٤ متراً، وأطلقوا عليه اسم شجرة السماء، ولكنه أقل من ارتفاع برج خليفة في دبي بما يقارب ٢٠٠ متر.

أفراح جامعية

إذا كانت العواصم والمدن الكبرى في العالم متشابهة في النهار، ربما تحت ألوان من الأقنعة التي تفرضها المجاملات

والتقاليد الاجتماعية وعمليات البيع والشراء وضرورات الكد واللهاث في سبل العيش، فهي تسترد في الليل ملامحها الطبيعية وعاداتها الأصيلة وعلاماتها الفارقة. كنت أسهر غالباً حتى الرابعة صباحاً، موعد إغلاق المطاعم والمشارب ومرابع السهر.. وطوال تلك السنوات لم أشهد، ولو مشاجرة واحدة حتى بين السكارى وهم يترنحون في الشوارع! وطوكيو مدينة لا تنام. وكانت السهرة الأسبوعية، في مساء الجمعة، تطيب لنا أحياناً في مطعم قريب من المحطة. وفي زيارتي الأولى، لم أطمئن كثيراً للمكان وضيقه فهو يقع في قبو عميق، ولكنه مشهور بطبق منوع من الأسماك مشوية ومقلية ومدخنة أو مطهوة على البخار المشبع بالتوابل الشهية. ولعل تميز المطعم في رقي رواده وطيبتهم، وقد تبين لي أن معظمهم من الأساتذة والفنانين والكتاب. وكان رفيقي الدائم في تلك السهرة الأستاذ فردوسي، فضلاً عن ضيوف عابرين.

أحياناً، وفي حدود مرة كل شهر أو أكثر قليلاً، كنت أمضي سهرة ممتعة مع كوكبة من أساتذة اللغة العربية، وأحياناً مع أساتذة من أقسام أخرى، في أحد المطاعم التقليدية على مقربة من محطة إكيبكرو، ولم يكن بيت الأستاذ نوتوهارا بعيداً عنها. وفي ذلك البيت الصغير الدافئ والمؤلف من طابقين

كانت والدته تغرقنا بألوان من الأطباق اليابانية التقليدية التي تجيد صنعها. وكانت السهرة تمضي في أحاديث شتى. الوالد الراحل دكتور نوتوهارا كان طبيب أسنان، وأمضى فترة في الخدمة العسكرية أو المدنية خارج بلده، ولعله كان في بحبوحة من العيش أو أنه وريث عائلة ثرية، كما يروي بعض معارفه. أما السيدة الوالدة فقد كانت مدرسة ولها كتب تربوية، وما زلت أحتفظ بآخر أعمالها وعليه إهداؤها على أمل أن أقرأه يوماً، إن تابعت دراسة اللغة. ومن المؤكد أن ذكاء نجلهما، صديقنا العزيز، وجديته الصارمة ونزعته المثالية في مقاربة الأمور هي التي أهلته لتسنم المكانة العلمية التي يشغلها، أكثر من ثراء أسرته. ومن تأمل مثاليته، توصلت إلى قناعة أنه متأثر بتعاليم كونفشيوس، إضافة إلى الشنتو والبوذية، لكنا لم نتحادث في أية مسألة دينية...

ومحطة إكيبُكرو هذه جديرة بوقفة خاصة وهي في حي تجاري وفني جميل. ولعل إيثارنا لهذه المنطقة يعود إلى أن بيت الأستاذ نوتوهارا قريب منها. وإلى الجهة الشمالية الشرقية من المحطة يقع مجمع سَنْشاين أعلى مباني طوكيو، وهو مؤلف من ستين طابقاً، وفي أعلاه إطلالة مأمونة، كما أن في أحد طوابقه متحف مائي.. كنا نطوف فيه لنشاهد أنواعاً

من الأسماك والكائنات البحرية الأخرى، ونتأمل أفعى ضخمة من وراء الزجاج مزودة بطاقة كهربائية تؤدي إلى مصرع حصان، كما تشير بطاقة التعريف. وفي الطريق إلى المحطة يقع مبنى خاص بشركة تويوتا، يعرضون فيه نماذج من أنواع السيارات وأجيالها المختلفة، وفي الطابق الأرضي منه تعرض شاشات التلفزة طرق صناعة هذه السيارة وكيف يقوم الإنسان الآلي (روبوت) بصنع أجزائها المختلفة وتركيبها ببراعة مدهشة وسرعة قياسية.

وأمام البوابة الغربية للمحطة ينتصب تمثال سيدة جميلة تمثل اللغة الأم. وإذا كتب لموجة التطرف الديني أن تصل اليابان فسوف يبادرون إلى ستر جسدها العاري بأكثر من عباءة، إذا لم يعمدوا إلى تحطيمها. وأمام البوابة الشرقية تمثال بومة، كثيراً ما ترى حولها العديد من الشباب يتأملونها بإعجاب.

السنة الأولى في الجامعة حافلة بتعليم الطلبة مبادئ الحياة الأولى ليكونوا رجالاً ونساء أشداء مستنيرين في علمهم وعملهم وسلوكهم، حتى يعتمد عليهم الوطن بعد التخرج بكل ثقة وكفاءة واطمئنان. وتشكل الرحلات الجامعية أساساً ومنطلقاً لمرحلة النضج والاكتمال، كما أن حفلة التخرج

في آخر العام تتجلى مهرجاناً جماعياً حافلاً تزينه الصبايا بأزيائهن التقليدية الكيمونو بألوانه الزاهية وأسعاره الفلكية التي يصل بعضها إلى عشرين ألف دولار! لذلك تؤثر الطالبات استئجار ذلك الزي في حفلة التخرج، وهو زي بهي مزين بصور الأزهار وعروق الخيزران والطيور المقدسة، ومنها طائر الكركي أو الغرنوق الجميل تسورو الذي يعتقدون أنه يعيش ألف سنة، وترى الأطفال يشكلون نماذج ورقية منه التماساً لشفاء مريض عزيز عليهم. ويعتقدون أيضاً أن السلحفاة تعيش عشرة آلاف سنة.

إن احتفال الأساتذة مع طلاب السنة الأولى يعد من التقاليد الجامعية الجميلة. كان الأستاذ نوتوهارا هو رئيس الإدارة التي تضم أقسام اللغة العربية والتركية والفارسية، وكانت تقام السهرة تحت إشرافه. وحفلات التعارف التي شهدتها كانت تقتصر على طلاب السنة الأولى في قسم اللغة العربية، إضافة إلى الأساتذة، وهي تقام في مطعم ياباني من مطاعم طوكيو التقليدية العريقة، وكان لا بد من خلع الأحذية خارج الباب والدخول حفاة لأن الأرضية مفروشة بالتاتامي، وهو حصير منسوج يدوياً من قش الأرز الناعم، ومقاييسه تختلف بين منطقة وأخرى، لكن عرضه أقل من متر بقليل وطوله

ضعف ذلك تقريباً، وهم يقيسون مساحة الأرضية في غرف السكن بعدد قطع التتامي، لا بالمتر أو الذراع. وفي ١٩٩٥ توسعت إدارة غرب آسيا وأصبحت تضم أقسام اللغات العربية والهندية والفارسية والتركية، وأسندت رئاستها إلى رئيس قسم اللغة الهندية.

في السهرة الأولى أخذ كل طالب يتحدث عن أسرته ونشأته وهواياته وقريته أو مدينته التي جاء منها، وأهم معالمها وثرواتها، ثم ينهي كلمته بالدافع الذي حمله على اختيار اللغة العربية. وبعد الطلبة، جاء دور الأساتذة بالحديث. وعند انتهاء السيرة الموجزة تواترت الأسئلة وتبادل الأفكار. ولما سألني أحدهم عما آكل من أنواع اللحم، لم أرتح للسؤال فأجبت بشيء من الدعابة الساخرة: «كل شيء إلا لحم البشر»! ويبدو أن الأستاذ الصديق نوتوهارا أدرك سوء التفاهم بين سؤال الطالب البريء والرد القاسي، فبادر بلباقة إلى توضيح الموقف قائلاً: تذكروا أن أستاذكم ترجم رواية أووُكا(شوهيه)*: «حرائق في السهول»، وأنتم تعرفون أن ذلك الجندي المطرود من فوجه لإصابته بالسل عاش مشرداً في غابات الفلبين والتقى بأحد العسكريين الذي كان يقتنص ضحاياه ويعيش على أكل لحم البشر!

وحين بـدأت أطباق المائدة تتوالى بعد حفل الخطابة والتعارف، كان لا بد أن أدفع الثمن غالياً حتى لا أبدو دعياً أو منافقاً، فقد جاءت ألوان من الطعام البحري النيئ.. وكنت مرغماً على تذوقها، وإن لم أستسغ طعمها، ورحت أحتال عليهم بتسجيل أسماء تلك الأطعمة، ولم تكن حيلة ناجحة إلا في حدود ضيقة، لأنهم كانوا حريصين على توزيع محتويات الطبق بينهم بالتساوي، إذ يتناول كل واحد منهم نصيبه المحدود، تاركين لي نصيبي، وهو في الغالب قطعة واحدة أو قطعتان في كل طبق من أطباق مائدة سخية متنوعة.

ولم يكن احتفال الجامعة بطلابها الجدد مقتصراً على سهرة المطعم التقليدي، ولكن رحلات القسم كانت تقام مرتين في السنة. ومن الذكريات الجميلة كانت زيارة البحيرات القريبة من جبل فوجي المقدس. والرحلة المرعبة التي لا أنساها كانت حين نزلنا في بقعة ريفية، ورحنا نتجول في الفسحات المجاورة لذلك المنتجع الطبيعي الجميل. وقد فوجئت بإقامة عشرات الأكشاك الإسمنتية في تلك البقعة، وحين سألت الأستاذ الصديق.. لفت نظري إلى غيمة رمادية خفيفة فوق الجبل القريب، وقال: نحن على مقربة من ذلك البركان. ولما لمح مسحة من الرعب تكسو وجهي، قال: لا خوف منه لأنه

شبه خامد ولم يزل على هذه الحال منذ سنوات. ولكن علينا أن نلجأ إلى هذه الأكشاك، إذا ثار فجأة، لنتقي خطره! ومن تلك اللحظة لم تغادر عيني ذلك اللهاث الرمادي الرهيب حتى تحركت بنا الباصات مبتعدة.

لكن الرحلة الأولى إلى شبه جزيرة إيزو كانت أجمل الرحلات الجامعية وأكثرها مرحاً وابتهاجاً، وقد ظلت ماثلة في الخاطر والوجدان، ولا سيما أن تلك المنطقة مشهورة بتنوع ملامحها وجمالها الطبيعي الساحر، وقد وردت في رواية كاواباتا* وكانت مسرح الشخصية المحورية فيها، بدءاً من العنوان: «راقصة إيزو»، كما أن اسم المنطقة ورد في أعمال أكثر من كاتب ياباني آخر. وراقصة إيزو تحولت إلى فيلم ياباني ذي إيقاع شاعري جميل عرضته القناة الثقافية في التلفزة، وكان للأستاذ نوتوهارا الفضل في إخباري هاتفياً ولفت انتباهي إلى موعد عرضه.

تقع شبه جزيرة إيزو إلى الجنوب من طوكيو، على مسافة يمكن اجتيازها بالباص في حدود ساعتين. وقد اختار الأستاذ نوتوهارا مقعدي إلى جانبه في مقدمة الباص، ليتيح لي مشاهدة الطريق وما يحيط به. ولعل حقول الشاي المترامية على سفوح التلال المجاورة كانت أجمل ما رأيت في الطريق.

وحين سألني الصديق الودود: أتعرف ما هي تلك الشجيرات الخضراء على السفح؟.. أجبت متسائلاً: دوالي عنب صغيرة؟.. فبادر مصححاً: هذا حقل شاي. وكانت المرة الأولى التي ألمح فيها، ولو من بعيد، نبتة الشاي. كان السفح يترامى، على مد النظر أمامنا وإلى يسارنا، وألوف الشجيرات الصغيرة تلوح ملفوفة هاجعة في خضرتها الكامدة.

ومن تلك الصورة الريفية المؤثرة استلهمت، بعد أسابيع، مقطعاً شعرياً جاء فيه:

يرمحُ الدربُ إلى إيزو
على زيقِ الخليج
وحقولُ الشايِ
تستدعي أريجَ الشيحِ
في باديةِ الشامِ
هل الذكرى ضناكَ الأبديّ؟!

لم تطل بنا المسافة ونحن ماضون في تلك النزهة الصباحية المنعشة.. وعلى مقربة من أحد خلجان شاطئ إيزو، نزلنا في فندق ياباني قديم المظهر من الطراز التقليدي المسمى بلغتهم ريوكان. وكان لا بد من خلع الأحذية وانتعال الأخفاف الجاهزة قبل الدخول، كما جرت العادة. الطعام

هنا ياباني خالص بكل أطباقه وألوانه، والنوم سيكون على حشايا مفروشة فوق حصر التاتامي على الأرض، بعيداً عن غطرسة الأسرَّة وتعاليها. والاستحمام الجماعي في حوض المياه الحارة كان بانتظارنا كذلك. تجربة لا تخلو من حرج في بدايتها، لكن طيب الأصدقاء وصفاء مودتهم سرعان ما يبعدان عنك مشاعر الحرج والتردد، فتدير وجهك إلى الجدار وتقوم بتنظيف جسمك جيداً وتزيل آثار الصابون، ثم تغوص مع الغائصين، وتلقي بالمنشفة الصغيرة التي كنت تستتر بها على حافة الحوض أو تعتصرها وتضعها على رأسك مثلما يفعلون. ومن القواعد المرعية أن النزول في المياه الحارة لا يجوز إلا بعد تنظيف الجسم خارجه.

وأطرف ما قمنا به مع اقتراب الغروب الوديع، في تلك الفسحة العشبية أمام الفندق، أن راح كل واحد منا يقدم شيئاً من فولكلور بلده وفنونه الشعبية. ولأني أحب الدبكة شكلت نصف دائرة من الطلبة، وأخذت رأس الحلقة ممسكاً بيد الأستاذ فردوسي، ورحنا نخطر ببطء متمايلين معاً بخطوات وئيدة متسقة.. وهم يقلدون بأناة وفرح واهتمام تلك الحركات البسيطة بإيقاعها السداسي الدارج في ريف حمص. وسرعان ما التقط الزميل العزيز والشباب من بعده إيقاع الحركة، وبدأنا

ندور في تلك الفسحة المنبسطة بحركات متماوجة لنخبط الأرض معاً، وكأننا ندعوها لمشاركتنا في تلك اللعبة الريفية السارة. وزاد في جمال تلك الدقائق البهيجة أن أحدهم كان يحمل شريطاً من أغاني فيروز.

لكن أجمل الأفراح الجامعية تتجلى في موسم التخرج. الفتيان في ملابسهم الرسمية والصبايا في أزهى أزيائهن التقليدية. طلاب تحسبهم يستعيدون أمجاد الساموراي وطالبات في زهوة الشباب ونضرته يرتدين الكيمونو، وهو منسوج من أقمشة الحرير الفاخرة، يتموج حافلاً بتصاميم فنية رائعة، مزيناً بأزهار الكرز وعروق القصب وطيور الغرانيق، وموشّى بخيوط من الذهب. وأنت الزائر الغريب تتأمل مأخوذاً هذه العرائس والأطياف القادمة من مدارات قصية.. وربما من فلك سماوي آخر، لا تملك إدراكه ولا تقوى على الوصول إليه، مهما طفر بك الخيال وتمادت بك الرغبات والأحلام.

الأم السماوية

إن عظمة اليابان نابعة من عظمة المرأة الأم، وبخاصة أن للأم أهمية خاصة في التربية والتعليم ما قبل الجامعي، فهي الراعية والمشرفة على وضع الأساس التربوي السليم وغرسه

في نفوس الناشئة، لبناء المناعة الذاتية واكتمال شخصية الفرد على مستوى الوطن والمجتمع، وإنجاز ما تصبو إليه الأمة من قوة وتقدم وازدهار، فضلاً عن دور الأم والمدرسة في ترسيخ التقاليد والقيم المتوارثة عن الأجداد. وربما من هذا المنطلق، نرى أن المرأة هي التي تقوم بتعليم اللغة اليابانية للأجانب في معظم المعاهد.. وهكذا تعامل الأمهات اليابانيات الغرباء كالأطفال، ويغمرنهم بالرعاية والحنان حتى في تعليم اللغة. ولنبدأ بالقصة من ينبوعها الأصيل.

في تراث الشنتو نطالع العديد من الأساطير التي ترجع بنا إلى أصول التاريخ الياباني، وفق تصورهم. ومن هذه الأساطير أن الجزر اليابانية خلقتها الآلهة، وكانت البداية بزوجين من الجيل السابع هما الفتى إيزانغي والفتاة إيزانامي اللذان هبطا من السماء مكلفين بإعمار الأرض وأحضرا معهما آلهة مساعدة وقوى خارقة أخرى كأرباب الرياح والبحار والجبال والأنهار والغابات. ومن بين هذه القوى، ربة الشمس أماتيراسو وأخوها رب العاصفة سوسانو - أو. وقد اشتبك الأخ الشقي في صراع عنيف مع أخته وحبسها في كهف مظلم، لكن النصر النهائي المحتوم كان لربة الشمس، مصدر النور والخير والجمال.

وتواصل الأسطورة سيرتها لتقول إن الشعب الياباني من أبناء الشمس، وذلك أن ربة الشمس العظمى ذات الإشراق

السماوي أماتيراسو ـ أو ـ ميكامي –Amaterasu–o mikami هي الأم الأولى لهذا الشعب، وهي التي أرسلت حفيدها نِنِغي Ninigi ليعمر الأرض، بدءاً من أول جزيرة تشكلت في اليابان حين انحدرت قطرة من سيفه، بعد أن غمسه في المحيط الكوني. وقد زودته الجدة بالكنوز الثلاثة المقدسة: السيف والمرآة والجوهرة. السيف رمز الرجل والقوة والشجاعة، والمرآة رمز المرأة والجمال والصفاء والاكتشاف، والجوهرة تشبه ثمرة الكاجو الهندية، ويرسمونها ثمرتين متناظرتين –رأساً إلى عقب– في دائرة مقسومة طولانياً بخط متعرج إلى ما يشبه حبَّتَيْ فاصوليا تشكلان رمزاً للمرأة والرجل معاً، وتكون نواتها رمز الجنين، كما في الشكل المبين أدناه. والدائرة في التراث الصيني رمز الكمال، وعنصراه الأساسيان (يانغ، يين) تحولا في اليابان إلى (يو، إن) وهما متكاملان ومتعاكسان دون صراع: الرجل والمرأة، الخير والشر، النور والظلام.. وحتى الوجه والقناع.. إلى آخر ما هنالك من مفردات متكاملة، رغم تناقضها، لكن دلالتها تختلف عن مفاهيم الغرب.. ومنهما يتشكل الكون ويحافظ على بقائه وتوازنه، ومن هذا التوازن (الهارموني) يتسق المجتمع والطبيعة في تناغم متكامل؛ وإذا اختل هذا التوازن كانت الفوضى والكارثة. وهناك أساطير أخرى تشير إلى أن الجزر اليابانية تشكلت من دموع إلهة، وكل

دمعة سقطت في ذلك المحيط تحولت إلى جزيرة.

لا تزال المرأة الأم أو الأخت الكبرى هي المسؤولة عن البيت الياباني وشؤونه وعن تربية الأولاد وتعليمهم حتى ينتهوا من المرحلة الثانوية. فالجامعة هي بدء انطلاق الفرخ من العش الحميم الذي ترعاه الأم. وكم شهدت سهر الأم وهي تشرف على دراسة طفلتها باهتمام شديد، بينما يجلس الأب يتحدث معي أو يراقب التلفاز ولا تفارق الكأس يده، وكأن أمر تعليم الطفلة كأي شأن من شؤون البيت.. لا يعنيه!

تبدأ التربية لديهم من رعاية الجنين، وهو في أحشاء أمه: على الأم الحامل أن تتجنب الأصوات والمناظر المؤذية، وأن تستمع إلى الموسيقا الهادئة العذبة، وتستمتع بمشاهدة الأشياء المريحة الجميلة حتى لا تسيء للكائن المتنامي في رحمها. وبعد الولادة تنتقل الأم الشابة، في الغالب، إلى بيت والديها لتكون في رعاية أمها شهراً كاملاً أو نحو ذلك. وتعد هذه الزيارة مرحلة أساسية في حياة الأم النفساء والوليد، لأن الجدة أقدر وأغنى خبرة وأجمل صبراً على تربية الرضيع، وتدريب أمه على مبادئ تربيته وأصولها. وحين تعمل الزوجة في إحدى المؤسسات، كما يعمل زوجها، فإنها تظل مسؤولة عن تربية الأبناء وتعليمهم، كما أنها مسؤولة عن تدبير شؤون

البيت وتحضير ألوان الطعام والنظافة والترتيب.

كان برنامجي اليومي في المقهى أن ألتقي وجوهاً جديدة للتعارف والحوار، فضلاً عن المعارف والأصدقاء القدامى. وكان وقتي فائضاً ومساعداً لذلك. لقد عرفت سيدات كثيرات، إلى جانب عدد أقل من الرجال. ذلك أن الرجل الياباني انطوائي، وهو دائماً غارق في عمله، ولا فائض في وقته للصداقات وجلسات المؤانسة والخوض في بحر من الأحاديث. ويمكن أن أضيف هنا أن نظام الشركات اليابانية لا يزال متأثراً، ولو بصورة غير مباشرة، بتقاليد الساموراي. فالعاملون في الشركة كأنهم في أسرة متماسكة واحدة، حتى إن زوجة العامل أو الموظف تقول عن شركة زوجها أوتشي Uchi، أي بيتنا! وأكثر ما يظهر ذلك في السهرات والرحلات الجماعية، وبخاصة خلال احتفالاتهم بموسم الساكورا حيث تراهم حلقات معقودة تحت أشجار الحدائق، لكنها حلقات مغلقة على زملاء المؤسسة. فالأخوة والأقرباء الآخرون وأبناء الحارة لا مكان لهم في هذه الملتقيات الخاصة بالزمالة والمحصورة في إطار الشركة أو الدائرة التي يتقاضى منها العامل راتبه. وأصحاب الراتب يشكلون طبقة متميزة أخذت المصطلح الإنجليزي Salaryman «ساراريمان».

ونظراً لطول ساعات العمل اليومية، وللجهد الكبير الذي يبذله الياباني، فإن وجبة الإفطار لا بد أن تكون غنية متعددة الألوان تحتوي على الأرز، وهو الطبق الرئيس، وإلى جانبه أطباق شهية من السمك والبيض والخضار والفاكهة، إضافة للشاي والحليب والعصير؛ وجبة تذكرنا بسفرة الإفطار في الريف العربي، قبل ذهاب الفلاحين باكراً إلى أعمالهم في الحقول.

هذا يعني أن على المرأة المسؤولة (أمّاً، أختاً كبرى، أو زوجة) أن تصحو باكراً من الخامسة لإعداد تلك الوجبة الصباحية الحافلة. وعلى العامل، سواء كان يعمل في شركة تجارية أو صناعية، مؤسسة تعليمية أو خدمية، دائرة رسمية أو في مشروع خاص، عليه أن يغادر بيته في السابعة أو قبل ذلك، حسب المسافة بين مسكنه ومقر عمله. وعلى الأم أيضاً أن تعد وجبات الغداء لأبنائها في المدرسة، لأنهم لن يعودوا قبل الخامسة مساءً. وغالباً ما تقضي سهرتها وهي تقلب مجلات الطعام المختصة بحثاً عن وجبة جديدة. وربما كان العامل الوحيد المريح نسبياً للأم هو أن الأسرة اليابانية تكتفي بولد أو اثنين، وأحياناً يؤثر الزوجان أن يبقيا كصديقين أو عاشقين بلا أولاد.

فرصة الغداء تبدأ في الثانية عشرة والنصف وتنتهي في الثانية، على وجه التقريب، وحسب طبيعة عمل المؤسسات. وهي وجبة خفيفة لإسكات المعدة، وتجديد الطاقة لأن العمل ينتظر ولا بد من مواصلته. ولكن المرتاحين من أعباء العمل، يمكن أن يمتد الغداء أمامهم حتى الرابعة بعد الظهر. وتقدم معظم المطاعم وجبات محدودة الألوان وبسعر رمزي، بعيداً عن تناول الكحول، فالعمل الجدي وتقاليده الصارمة لا تسمح لهم بذلك. وغالباً ما يستمر العامل في عمله حتى السابعة مساءً، وفي بعض الأحيان يظل حتى الثامنة أو التاسعة. وفي طريقه الطويل إلى البيت، لا بد له من تناول كأس من الشراب وحيداً أو مع الأصحاب. وتشير الإحصائيات إلى أن عدد المشارب في طوكيو وحدها يبلغ نحو ثمانين ألف مشرب، هو مقهى ومطعم وحانة في الوقت ذاته.

وإذا استثنينا بلدان أميركا اللاتينية، ربما كان الشعب الياباني من أكثر شعوب العالم استهلاكاً للمشروبات الكحولية. وربما كان الإدمان وتلوث البيئة من أخطر مشكلات المستقبل في تلك البلاد. ولأن ثروات اليابان الطبيعية قليلة جداً، بالمقارنة مع الكثافة السكانية، فلا بد أن تشعر بمدى خوفهم من المستقبل، وإن كانوا يعوضون شح الطبيعة

بالشغف العلمي وابتكاراته والروح الجماعية والعمل الدؤوب. وكان الأستاذ فردوسي، وهو يحمل الجنسية الأميركية، ينتقد أصحابه قائلاً: الياباني لا يعرف الفرح ولا يستمتع بحياته مع أسرته. في لبنان أو أميركا اللاتينية مولعون بالشراب مثلكم، ولكنهم لا يضيعون ساعات الفرح. أنتم لا تعرفون إلا الشراب اليومي وتوفير نفقات السفر وعشق آلات التصوير، فهل تستغنون بصور الإجازات وذكرياتها عن أفراح الحياة ومسراتها؟

لم أكن معه في هذه النظرة القاسية، بل كنت أرى أن التاريخ والجغرافيا أسهما معاً في صياغة الرجل الياباني، أما المرأة فكنت أراها أشبه ما تكون بالطبيعة المغلفة على أسرارها، طبيعة الجزر المنفصلة عن أمها الآسيوية قبل عشرات الألوف من السنين. وربما من هذه الزاوية كتب الروائي كوماتسو* هواجسه المروعة «اليابان تغرق»! إن الواقع المثقل بالعمل المضني والشراب المفرط يكاد يلغي الحياة الاجتماعية، وحتى العائلية بين الرجل والمرأة داخل البيت الواحد، إلا في حالات استثنائية قليلة. وهذا ليس أمراً طارئاً أو جديداً في صحائف التاريخ. ومن الانتقادات الساخرة للزوج التقليدي أنه لا ينطق في بيته إلا ثلاث كلمات (ميشي، أوفرو، نيرو):

١ـ Meshi : تعني الأرز المطبوخ، أي أنه يريد «الطعام».

٢ـ Ofuro : إعداد «الحمَّام».

٣ـ Neru : تعني أنه يريد أن «ينام»!

إنها صورة تبدو كاريكاتيرية ساخرة، ولا شك أنها مخيفة. لكنها في كثير من الأحيان واقعية إلى حد المرارة. وقد سألت أستاذة يابانية مستعربة، وهي عميدة إحدى الكليات، أن تعطيني أحد الأمثال الشعبية، فقالت: حتى لو كان مثلاً غير لائق؟ قلت: أنت درست في البلاد العربية وتعرفين أن عندنا كثيراً من الأمثال النابية. قالت: «السمكة التي تصيدها، لا تقدم لها أي طعم»! سألت ضاحكاً: «أين وجه السوء في هذا المثل؟» أجابت بشيء من اللوم العاتب: «هذا المثل عن المرأة. إنه يقول: إذا تزوجت امرأة، فلا تكن لطيفاً معها.. وإياك أن تقبلها أو تساعدها أو تخصها بأي كلمة حب أو مراعاة أو معاملة حسنة!»

وتشير التقاليد الصارمة إلى أكثر من ذلك، إذ كان على المرأة أن تمشي وراء زوجها بثلاث خطوات لئلا تدوس على ظله! وتشير الحكايات إلى أن هناك جبلاً لإلقاء العجائز المسنات عليه والتخلص من أعبائهن. وهناك الكثير من القصص والطرائف والمعاملات القاسية التي تحفل بها

الدراسات التاريخية، كاشفة عن وضع بائس وصور شتى من المظالم الجائرة بحق المرأة، وبخاصة في مرحلة الحكم العسكري الإقطاعي. كانت المرأة من «بيت أبيها إلى بيت زوجها لتخدمه». وكان من عادة الرجل أن يجلب محظية أو أكثر لتأتي له بالوريث، إذا لم يرزق بولد من زوجته، فالمرأة هي وحدها المسؤولة عن العقم.

لكن معظم هذه العادات صارت من ذكريات الماضي وسلبياته الغاربة. ويبدو أن كثرة الطلاق في عصرنا ظاهرة عامة في معظم القارات، لكن كتب الدراسات تشير إلى أن ثلاثة أرباع الطلاق في اليابان تحدث بطلب من الزوجة، وهناك أكثر من سبب. فالرجل خلال خدمته العملية لا يعرف من شؤون البيت وحاجاته اليومية شيئاً. وإذا كان يمضي ثماني ساعات في عمله وساعتين أو ثلاثاً في الطريق، ذهاباً وإياباً، وربما ساعة أو أكثر بصحبة الكأس، فالبيت عندئذ لن يكون أكثر من سرير للنوم. وبعد التقاعد يصبح هذا الرجل عبئاً ثقيلاً على الزوجة، في كثير من الأحيان، وبخاصة في بيوتهم الضيقة. وهناك أسباب أخرى، قد يكون الإدمان واحداً منها.

ولكن، بعيداً عن تلك الهموم والمشكلات التي لا يخلو منها مجتمع، فإنهم يحيطون الطبيعة بهالة من القداسة والاحترام.

ولأن المرأة، كالزهرة والشجرة والغزالة والفراشة، أجمل ما في هذه الطبيعة وأغلى كائناتها، فالنظرة إليها لا تخلو من قداسة أيضاً ما دامت مشروع أم. وإذا كان لكل مجتمع عاداته المختلفة والخاضعة لثنائية الإخفاء والإعلان، وفق معايير وراثية صارمة، فإن الغريب لا يرى إلا ما يجري على السطح، ولا يعلم بمكنونات النفس إلا بارئها.

لكن المعاملة الإنسانية الطيبة هي التي تميز الشعب الياباني بوجه عام. لا رغبة لديهم للشجار، ولا وقت لذلك. في القطار حيث تمتد المسافات ساعات.. تتلفت حولك لتستكشف ملامح الأمكنة أو لتعرف أسماء المحطات التي تعبرها، وتفاجأ بسيدة في الخمسين أو الستين من العمر تنهض من مقعد بعيد في آخر الحافلة وتتقدم لتنحني أمامك سائلة: أين تريد أن تنزل؟ ملامحك ونظراتك تؤكد لها أنك غريب لا تعرف المكان، فتبادر متطوعة لتقديم المساعدة. ولأن الأمطار صيفية ومفاجئة، فغالباً ما تنسى مظلتك. وحين يهطل المطر وأنت سائر في الطريق أو واقف تنتظر قدوم الباص تفاجأ بمظلة فوق رأسك... إنها سيدة/ أمٌ تعرف أنك غريب وتريد أن تحميك من المطر. تشكرها بانحناءة مودة واحترام، وتدعوها أحياناً إلى فنجان قهوة في بيت الشاي أو المقهى القريب، تقبل الدعوة بترحاب

إن كان لديها وقت، وتعتذر إن كانت مشغولة. تسألك عن بلدك وأهلك وأطفالك، وصور الزوجة والأطفال تجعلها قريبة منك، وتكون مناسبة لتتعرف إلى زوجها وأسرتها وتعرفهم إلى أفراد أسرتك. وهم يقدرون الصداقة إلى أبعد الحدود، لأن الصديق شقيق الروح.

زلازل وأعاصير

حدَّثوني، عرضاً، عن رهبةِ الزلزالِ

عن هولِ الثواني

ساعةَ الأرضُ تميد

والسماواتُ تدور

[وترى الناسَ سكارى...]

الزلازل مرعبة.. وأول مرة فاجأني بها الزلزال لا يمكن أن تنسى، وقد عشت أهواله ثواني معدودات حسبتها دهراً. كان ذلك بعد ظهيرة الجمعة ٢١ مايو (أيار) ١٩٩٣- وأنا في مكتبي بالجامعة. وفي الجانب الآخر من المكتب كان طالب دراسات عليا، وأبو نواس جالس بيننا يتباهى بفتوحاته الشعرية. فجأة بدأ المكتب الخشبي أمامي يهتز، وطفق الشاعر يترنح بين أوراق ديوانه، ثم راحت النوافذ تضطرب والكتب تتساقط عن الرفوف من ورائي، سألت برهبة واستغراب: «ما هذا؟»

أجاب الفتى بهدوء: جِيشِن Jishin، ثم استدرك قائلاً: زلزال، هزة أرضية.

كانت تجربة مرعبة إلى أقصى حدود الهول. قلت بلهفة مروعة: «لماذا لا نخرج؟» رد بالهدوء ذاته: نحن في الطابق الرابع، ولن نصل إلى الدرج حتى ينتهي كل شيء، والمصعد غير مأمون ولا ينصح باستعماله في هذه الحال. حفظت كلمة «جيشِن» جيداً ولا يمكن أن أنساها، وبخاصة أن مقلوب اللفظ شيجِن Shijin معناه: شاعر، لكن الشكلين في الأبجدية الصينية المعروفة باسم كانجي مختلفان جداً في رسمهما.

بناء هذا القسم من الجامعة قديم مؤلف من أربعة طوابق، وسرعان ما انتهت الهزة خلال ثوانٍ معدودات وهدأ كل شيء. كنت أفكر في ناطحات السحاب القائمة على مقربة من محطة شِنجُكو، في وسط طوكيو. أغلقت المكتب وأسرعت إلى القطار الذي سيحملني إلى تلك المحطة. فوجئت بأن الأبنية الشاهقة ما زالت على حالها. وهكذا تمضي لحظات الخوف وتدور عجلة الحياة، وسرعان ما يعتاد الإنسان. في مرات قادمة كنت أصحو ليلاً وأحس بالأرض تميد من تحتي، وأستمع إلى زجاج النافذة وأدوات المطبخ وهي تتراقص.. لكني أغمض عيني وأتابع النوم باستسلام قدري عجيب مثلما يفعلون.

حدث ذلك في طوكيو مراراً، وبدرجات متفاوتة. ومرة

كنت نائماً فصحوت على الأرجوحة، تأملت نوسان المصباح المتدلي من السقف، وسرعان ما غرقت في النوم من جديد. وأيقظني الزلزال برجة أقوى في جبال هاكونِه. كنت يومئذ برفقة الأستاذ فوجيتا، ونحن في ضيافة بيت عديله. المضيف وزوجته مهندسان ما زالا في نضرة الشباب وعز النشاط. وكنا قد تجولنا بصحبتهما في عدة مناطق من أرجاء ذلك المنتجع الجبلي الحافل بالقرى والمواقع السياحية والثقافية الجديرة بالزيارة والراحة والاستمتاع، ثم عدنا إلى بيتهما الخشبي المريح الذي أبدعا في تصميمه وبنائه وزخرفته، فكان أشبه بقصر ريفي رائع. وبعد العشاء التقليدي الحافل بألوانه، أمضينا سهرة وديـة أنيسة حتى انتصف الليل، فمضى المضيفان اللطيفان إلى غرفة نومهما، وصعدت مع رفيق الرحلة إلى النوم في شرفة داخلية تشكل سقف المطبخ، ويطل جانبها المفتوح على الشطر الداخلي من صالة الجلوس والطعام.

ولم أكد أغمض عيني وأستسلم بارتياح لسكينة الليل الغامرة حتى بدأ البيت يرتج بعنف متصاعد، وانطلقت أدوات المطبخ تتراقص كفرقة إيقاع خفية هبت فجأة من نومها، وراحت تداعب صنوجها بفوضى متنافرة. بادرت إلى الجلوس

في فراشي، وإن كنت مطمئناً على سلامة البناء الخشبي، لكن الأستاذ في الزاوية المجاورة لم يتحرك إنما اكتفى بتمتمة هادئة: لا تخف.. ولا تنس أننا في هاكونِه... ثواني معدودات وعاد السكون يغمر الكون من جديد.

لقد زرت معالم هذه الجبال مراراً، وبصحبة صديقات وأصدقاء لهم زاوية دافئة في شرفة القلب، وكانت قرية غورا وحديقتها العامة المصممة على الطراز الفرنسي، ومتحفها الفني القائم في أحضان الطبيعة الخلابة، أولى تلك الزيارات. كان برفقتي رسامة شابة وصديقها النجار الذي يتفنن بصنع إطارات جمالية خاصة بلوحاتها. وفي قاعة مغلقة من ذلك المتحف الريفي الفسيح، شاهدت رائعة دافنشي، الموناليزا، لأول مرة. أمضيت نحو عشر دقائق وأنا أتملى نظرتها المواربة وابتسامتها الغامضة، وخيل إلي أنها شبه ابتسامة، كما تأملت يدها الحريرية البضة التي ذكرتني بخشونة أيدي الأمهات في ريفنا بين حمص وتدمر، لكني أحسست بخلجة خافتة من السخرية، كامنة في الأعماق، تحت ذلك القناع الفني المدهش.

ربما كان الوصول إلى تلك القرية لا يقل متعة وجمالاً عن طبيعتها ومتحفها، خصوصاً حين تهبط من قطار طوكيو لتأخذ قطاراً آخر من عربتين يسير بك صعداً على سكة متعرجة، كما

هي الحال في شعاب الجبال ودروبها. لكن المسرة الغامرة أن تطوف في تلك الجبال، وتنتقل بينها جواً في عربات صغيرة معلقة بحبال متينة، وهي شبيهة بقمرات رواد الفضاء، لكنها مكشوفة من جميع الجهات ولا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص أو خمسة من ذوي الحجوم الصغيرة. ومن أحلى سمات البهجة في تلك الرحلة أني لم أشعر برهاب المرتفعات، ولا أدري إن كانت سكينة الجو المعتدل في ذلك الأصيل الربيعي أو السفوح المكسوة بألوان من نضرة الطبيعة هي التي غمرتني بتلك الطمأنينة المفعمة بالغبطة الروحية.

لكن طوكيو وجارتها يوكوهاما لم تغب عن ذاكرتهما أهوال الزلزال الرهيب الذي حدث في ظهيرة الأول من سبتمبر (أيلول) ١٩٢٣، ويقدرون شدته بسبع درجات وتسعة أعشار الدرجة. كان كارثة مدمرة بأقسى ما في الكلمة من معنى، وقد بلغ عدد الضحايا نحو ١٤٠ ألفاً، بخاصة من جراء الحرائق التي شبت بالمساكن الخشبية. ويقال إن الأمواج المدية (تسونامي) بلغ ارتفاعها عشرة أمتار وكان لها ضحاياها كذلك.

وهذه الظاهرة الطبيعية المتولدة بفعل حركة الصفائح القلقة في باطن الأرض، كان لها موقعها في الأساطير الصينية واليابانية. وكل منهما يرجعها، وفق موروثه وعلى

طريقته، إلى الصراع بين قوى الطبيعة الخفية. وتقول الحكاية إن القوة الإيجابية الحبيسة في الأعماق تريد أن تخرج فتضغط بقوة على السطح وتؤدي بذلك إلى حدوث الزلزلة. وفي اليابان يرجعونها إلى أربعة أنواع من القوى المتعاركة، منها ما ينزل المطر، ومنها ما يبشر بموسم مزدهر، ومنها ما يدعو إلى العمران، وآخر للدمار. وهكذا تسهم الأسطورة في تعليل الظاهرة، ولعلها تسهم في التخفيف من هول الكارثة وتدعو إلى التماسك والاستسلام.

أما الأعاصير فتحدث صيفاً.. ولي معها قصة مختلفة وأقل رهبة. كنا في عطلة الصيف يوم داهم الإعصار طوكيو، فبقيت محجوزاً في البيت أتأمل الأجواء العاصفة المعتكرة من النافذة العريضة. وفي اليوم التالي خلا المطبخ إلا من الشاي والسكر، ولم يكن في الثلاجة غير الماء، إذ كنت أتناول طعامي غالباً خارج البيت. تأملت أن يهدأ الجو بعد الظهر، لكن الساعة تجاوزت الثالثة ولا من بشارة. كنت أحتفظ بمظلة متينة الهيكل والأضلاع فحملتها وخرجت... المسافة ليست طويلة، عشر دقائق وأصل إلى الشارع المسقوف، وفي وسطه مؤسسة حافلة بكل ما يخطر في البال، وهناك أكثر من مطعم في ذلك الشارع. لكن الريح العاصفة سرعان ما قلبت المظلة ومزقت

طريقته، إلى الصراع بين قوى الطبيعة الخفية. وتقول الحكاية إن القوة الإيجابية الحبيسة في الأعماق تريد أن تخرج فتضغط بقوة على السطح وتؤدي بذلك إلى حدوث الزلزلة. وفي اليابان يرجعونها إلى أربعة أنواع من القوى المتعاركة، منها ما ينزل المطر، ومنها ما يبشر بموسم مزدهر، ومنها ما يدعو إلى العمران، وآخر للدمار. وهكذا تسهم الأسطورة في تعليل الظاهرة، ولعلها تسهم في التخفيف من هول الكارثة وتدعو إلى التماسك والاستسلام.

أما الأعاصير فتحدث صيفاً.. ولي معها قصة مختلفة وأقل رهبة. كنا في عطلة الصيف يوم داهم الإعصار طوكيو، فبقيت محجوزاً في البيت أتأمل الأجواء العاصفة المعتكرة من النافذة العريضة. وفي اليوم التالي خلا المطبخ إلا من الشاي والسكر، ولم يكن في الثلاجة غير الماء، إذ كنت أتناول طعامي غالباً خارج البيت. تأملت أن يهدأ الجو بعد الظهر، لكن الساعة تجاوزت الثالثة ولا من بشارة. كنت أحتفظ بمظلة متينة الهيكل والأضلاع فحملتها وخرجت... المسافة ليست طويلة، عشر دقائق وأصل إلى الشارع المسقوف، وفي وسطه مؤسسة حافلة بكل ما يخطر في البال، وهناك أكثر من مطعم في ذلك الشارع. لكن الريح العاصفة سرعان ما قلبت المظلة ومزقت

واستجلاء ما وراء السطور والغوص في ثناياها، وحتى تلمس ظلالها، هذه الساعات الممتعة الحافلة بعذوبة اللقاء وروعة الاكتشاف، لا يمكن التعبير عنها أو الإحاطة بمزاياها ودلالاتها وإيحاءاتها لأول وهلة، ولا حتى بأيام وأسابيع. وغالباً ما تختزن الذاكرة ملامح ولقطات وقطوفاً من أحاديث لا تتجلى دفعة واحدة، ولا تظهر إلا في رؤى وأطياف متناثرة بعد حين، وكأن كل شيء في حياتنا يحتاج إلى مراحل وأطوار من الارتشاف والاختزان والاختمار، حتى تستقر عناصره الموارة في أعماق النفس، ويكتمل تشكله ويحلو مذاقه مع مرور الفصول وتقلب الأجواء ومثار التداعيات...

في أوائل العطلة الصيفية، تطوع ثلاثة من طلبة الدراسات العليا بمرافقتي إلى بلدة كاماكورا على شاطئ البحر حيث نزور معالم المدينة ويمكن أن نسبح في أجمل الخلجان التي تحتضنها التلال، ولم يترددوا بإعلامي أن أضخم تمثال لبوذا يتربع هنالك في أحد معابدها. تقع البلدة إلى الجنوب من طوكيو، وتستغرق رحلة القطار إليها من قلب العاصمة نحو ساعة ونصف الساعة، ولهذه البلدة مكانة تاريخية متميزة نافست بها العاصمة القديمة كيوتو، التي بقيت مقراً للأسرة الإمبراطورية، رغم مكر التاريخ وتقلبات الظروف.

لقد تضاءلت أهمية كيوتو بانتقال مركز السلطة منها

إلى كاماكورا التي أصبحت مقر الحكم العسكري واستمرت نحو ١٥٠ سنة (١١٨٥-١٣٣٣). كان مينامونو (يوريتُمو) هو الحاكم المؤسس، رافضاً العودة إلى ظل الإمبراطور في كيوتو. ويبدو أنه كان على قدر من الذكاء، إلى جانب القوة، حتى تمكن من إقناع الإمبراطور بإصدار قرار بإحداث سلطة عسكرية مدعومة بوزراء ومساعدين وإدارة إقطاعية تراتبية مهيمنة، وتحت إمرة كل إقطاعي خاضع لسلطة هذا الحاكم وإشرافه، أفواج من الساموراي يشكلون القوة الضاربة لحكم البلاد، في حين كان رجال الإقطاع مكلفين بالإشراف على الأرض وجمع الضرائب. وقد أطلق على السلطة الجديدة في البداية كلمة بافوكو، Bafukuوهي من أصل صيني، مقتبسة من قيادة المخيم أو المعسكر، وإن كانت ذات مغزى سلبي مقترن تاريخياً بالبربرية ومكافحتهم في الشمال الياباني.

لكن الإمبراطور اضطر أخيراً أن يمنح هذا الحاكم العسكري الجديد لقب شوغنShogun ومعناها: القائد العام ومنها صيغت الكلمة الإنجليزيةShogunate لتدل على السلطة العسكرية الجديدة. وهذه صارت أكثر دلالة وأوسع انتشاراً، لكنها لم تدخل اللغة الإنجليزية حتى سنة ١٦١٥، وربما كان السبب طول عزلة اليابان، وبخاصة عن الغرب.

كان ميناموتو يرغب بإقامة تمثال عملاق لبوذا ينافس به تمثال نارا، التي كانت عاصمة الإمبراطورية خلال القرن الثامن الميلادي (٧١٠-٧٩٤)، قبل أن تنتزع السيادة المركزية منها مدينة كيوتو التي تربعت على عرش الأقحوان، واحتفظت بكونها العاصمة الجميلة ومركز البلاط الإمبراطوري ما يزيد قليلاً عن ١٠٧٠ سنة، ولو شكلياً في أكثر من مرحلة. وهي لا تزال حتى اليوم تضم التراث العريق الأجمل لليابان وتمثل المخزون التاريخي الحافل بأبهى ما فيه من معالم ثقافية وصروح عمرانية وتقاليد وطنية أصيلة.

لكن الموت خطف ميناموتو قبل أن يحقق رغبته بإقامة التمثال، فاستلمت زوجته مساكو دفة الحكم من بعده، وحولها مجلس من الأوصياء والأعيان، وتابعت العمل على تحقيق المشروع البوذي، دون أن تحظى بتمويل رسمي. وقد هبت لمساعدتها إنادا، إحدى سيدات القصر الحاكم. ونظراً لأن الاعتماد على أموال الدولة لم يكن متاحاً، قام كاهن من طائفة صوفية اسمه جوكو يتجول في أنحاء البلاد ملتمساً جمع الهبات والتبرعات، حتى تمكن بعد سنوات من تدبير المبلغ المطلوب. لكن مساكو كانت قد لحقت بزوجها. ومع ذلك، لم ينكسر الحلم واستمرت السيدة إنادا بمواصلة المساعي حتى أنجزوه في

١٢٥٢. وشاء مكر التاريخ، وربما حكمته، أن يتم إنجاز التمثال بعد ٥٠٠ سنة من إقامة نصب بوذا الضخم في نارا.

أقيم التمثال، أول الأمر، من الخشب وسط قاعة خشبية ضخمة، لكن إعصاراً هائلاً دمر النصب والقاعة معاً في ١٣٣٥، وفوق ذلك، أدى إلى مصرع نحو ٥٠٠ من رجال الساموراي كانوا قد لاذوا بتلك القاعة أملاً في أن تحميهم من الهول الرهيب. وقبل سنتين من ذلك التاريخ المشؤوم، كانت أبهة العاصمة قد عادت إلى كيوتو من جديد، وفقدت كاماكورا أهميتها، ولم يجد بوذا من يؤويه فظل ماثلاً في العراء حتى اليوم.

وهذه البلدة الجميلة مشرعة على البحر من جهتها الجنوبية، بينما تستلقي محاطة بالتلال من جهاتها الثلاث الأخرى، وتشكل منتجعاً سياحياً متميزاً بطبيعته الخضراء الناضرة ومعالمها العمرانية، خصوصاً معابدها ومزاراتها الأثرية الرائعة. يقع تمثال بوذا العظيم، في باحة معبد كوتُكوإن، وهو هيكل أجوف من البرونز، يرتفع نحو أحد عشر متراً فوق قاعدة لا تقل عن مترين، ويزن أكثر من ٩٠ طناً. وتروي مدونات المعبد أنه كان خشبياً داخل قاعة واسعة من الخشب، لكن عاصفة دمرته مع القاعة المحيطة به، فأعيد بناؤه من

البرونز، لكنه تعرض لأكثر من إعصار مدمر. وكان زلزال طوكيو عام ١٩٢٣ آخر كارثة تهز التمثال من أساسه، لكنه صمد هذه المرة ولم يتأثر منه إلا القاعدة التي أعادوا ترميمها.

يتخذ بوذا وضع الجلوس بمهابة جليلة وهو في حالة التأمل، وقد جعل يديه في وضع اللوتس كما يسمونها حيث يتجه باطن الكفين إلى الأعلى كما في حالة الدعاء، وإن كانت الأصابع في وضع نصف منطبق، والإبهامان متلامسان من طرفيهما في مستوى أفقي، وخلفهما السبابتان متجهتان من وسطهما إلى الأعلى، وقد انحنتا بزاوية قائمة من المفصل الأوسط ليتلامسا من ظاهرهما، بينما يتوارى طرفا السبابتين خلف الإبهامين. حاولت عدة مرات أن أقلد بأصابعي هذا الوضع فلم أتمكن، خصوصاً أن الزاوية الواصلة بين الإبهام والسبابة جعلها النحات نصف دائرة، وهذا ما لم أستطع تقليده. وإذا كانت ضمة الأصابع أول ما استرعت نظري في جلسة المعلم الحكيم تلك، فإن الملامح الأنثوية اللطيفة في وجهه الأنيس تلفت الانتباه وتستثير التساؤل. ولعل أقوى ما يشد نظر الزائر ذلك الوجه شبه الدائري الذي يبلغ عرضه أربعة أمتار ونصف المتر، إضافة إلى تلك الخصلات المجعدة في شعره، ويقال إن عددها لا يقل عن ٦٥٠ ضفيرة أو عقدة.

وقد أكدت لي إحدى السيدات أن العدد الصحيح ٦٥٦ عقدة، لكنها لا تعرف السر الصوفي الكامن وراء هذا الرقم. ولقد قمت بجمع الأرقام الثلاثة معاً فكانت ١٧، ثم جمعت هذين الرقمين فكانت المحصلة ثمانية، وهذا الرقم يدل على حسن الطالع ويجلب الخير والطمأنينة. وعملية الجمع هذه تعلمتها من المعلمة في أحد دروس اللغة، وكانت يومئذ تحدثنا عن الأعداد ودلالاتها الرمزية.

كان بوذا يبدو سعيداً في جلسته التأملية تلك، وحوله على مد النظر غابات واسعة من أشجار الصنوبر والكرز والبلوط تغطي سفوح التلال، وتعانق زرقة السماء الموشاة بكِسَفٍ من الغيوم. لكن هذا لم يكن المعبد الوحيد. هناك معابد بوذية أخرى ومزارات للشنتو متعددة في هذه البلدة التي تشبه متحفاً فنياً وعمرانياً جميلاً، تناثرت روائعه بلطف وبساطة في أكثر من مكان. ومن هذه المعالم معبد زِنياراي لدى نبع ينبثق من كهف في جوف الصخر. وتعود قصة هذا المزار إلى يوريتومو بعينه. ويحكى أن رؤيا جاءته في يوم الأفعى من شهر الأفعى في سنة الأفعى، حسب تقويمهم الفلكي. وكان مطلوباً منه في تلك الرؤيا أن يبحث في التلال الغربية عن ذلك الينبوع ويقيم حوله معبداً أو مزاراً فكان له ذلك في ١١٨٥، أي مع استلام

الحكم العسكري. ويمتاز بأنه معبد توفيقي، يجمع بين تراث الشنتو وبوذية إحدى الفرق الهندية. ومع ارتباط هذا المزار بالأفعى فإن رمزه المقدس يظهر بجسم أفعى ورأس إنسان. وكان الآمر ببنائه يأمل أن تنعم بلاده بالسلام وتتخلص من ويلات الحروب التي عانت منها طويلاً في أواخر عصر هييان، وقد تحقق أمله في كاماكورا وبدأ عهداً جديداً، لكن المنية وافته بعد حين ولم ينعم بحكمه طويلاً.

والطريف أنهم يغسلون في ماء الجدول بعض النقود أملاً في مضاعفتها، والتماساً لمزيد من الخير والنجاح والازدهار. وعلى مقربة من كهف ذلك النبع، تناولنا الشاي الأخضر، وكان مذاقه متميزاً بمرارة شهية ومنقوعه كثيفاً أقرب ما يكون إلى عصير الموز أو مخيض اللبن. إن طعم الشاي في ذلك الكوب الخزفي لا ينسى، ولكنها كانت المرة الوحيدة التي أحظى بنكهتها الفريدة تلك، طوال إقامتي هناك. وحين هبطنا متوجهين لتناول الغداء في أحد مطاعم المدينة، لم أستسغ ألوان الطعام، ومعظمها من المحار والأسماك المعدة على الطريقة التقليدية. وحتى كوب الشاي الأخضر كان تجارياً عادياً، ولم يكن بمذاق ذلك الشراب الفريد بلونه وكثافته ومذاقه في جيرة ينبوع الأفعى.

ومرة ثانية زرت كاماكورا في الصيف التالي بصحبة أحد الأصدقاء، وكان الهدف أن نسبح على شاطئها، قريباً من المكان الذي التقى به الطالب بالأستاذ في رواية ناتسوميه (سوسيكي)*: «القلب». لم تكن تلك الزيارة ناجحة، وأكاد أقول إنها مغامرة خطرة، لأن الجو اعتكر فجأة في أصيل ذلك اليوم وهاج المحيط وأصبح الموج عالياً. ورغم أني لا أجيد السباحة، فقد ألقيت بنفسي في المياه المزبدة على ذلك الشاطئ، هرباً من حرارة الجو. وكنت أحاول الاحتيال على الخطر الداهم بالغوص تحت الموج المندفع بعنف على الرمال، لكني تلقيت لطمات عديدة كادت تفقدني صوابي. وكان لا بد من الخروج واللجوء إلى المقهى القريب. ولعل الدرس المفيد الذي اكتسبته من تلك الزيارة كان في إدراك الفارق الكبير بين الطبيعة الوديعة التي يمتاز بها البحر المتوسط وضراوة الهياج الرهيب التي يتباهى بها ذلك المحيط.

قضايا ومنتديات

يشكل بعض الجامعات اليابانية مراكز علمية هامة للبحث والتبحر العلمي واستشراف المستقبل. وينظمون لهذه الغاية منتديات عالمية، مرة أو مرتين في السنة، وفق ما تقتضيه

الظروف. ولقد شهدت اثنين من هذه المنتديات، الأول في كوبيه القريبة من العاصمة الاقتصادية أوساكا، وهي مدينة ساحلية جميلة، تجولنا فيها طويلاً. ولم يشغلني المنتدى كثيراً، لأن معظم المحاضرات والمداخلات كانت باليابانية، وكنت أكتفي بأحاديث الأصدقاء في السهرات وبالكرَّاس الإجمالي الموجز الصادر باللغة الإنجليزية في الختام.

لكن الموضوع الذي لفت انتباهي في تلك المنتديات، هو اهتمامهم الواضح بالإسلام والدول الإسلامية وتقديم أكثر من بحث في هذا الشأن. وكان التركيز غالباً على الجمهوريات الإسلامية التي خرجت من تحت الجناح السوفييتي. ولقد حاولت معرفة دواعي هذا الاهتمام ومراميه، فكانوا يشيرون إلى أن اهتمامهم العام ينصب على البحث العلمي، لا أكثر. لكن تطور الأحداث في أكثر من بلد إسلامي، بدءاً من أفغانستان، يؤكد أن قطار العولمة كان في بدايات انطلاقه الجارف. ولا شك أن ضفتي الباسيفيك كانتا تشكلان المحرك الأساسي لانطلاق ذلك القطار، مع اختلاف دور كل منهما ومقدار الفوائد التي يكتسبها كل طرف.

تمتاز كوبيه بطبيعة ساحلية وجبلية رائعة، وكانت قد حظيت باهتمام خاص من الحاكم العسكري تويوتومي،

أحد القادة الثلاثة العظام الذين كان لهم الفضل في توحيد اليابان، ويروى أن هذا الحاكم كان يتردد إلى ينابيعها الحارة المعروفة باسم أريما، وهي من أقدم المنتجعات الحارة في اليابان. وميناء كوبيه كان أول ميناء مؤهل لاستقبال السفن الأجنبية، وقد جرى افتتاحه في أول يناير (كانون الثاني) ١٨٦٨، أي في عهد ميجي بداية عصر النهضة اليابانية والانفتاح الواسع على العالم، وإن كانت ناغاساكي في أقصى الغرب سباقة بمينائها إلى استقبال السفن الأجنبية وقبول مستوى محدود من التجارة مع الصين والغرب، ممثلاً بشركة الهند الشرقية الهولندية.

وفي اليوم الأخير من زيارة كوبيه، قمنا بجولة اطّلاعية جميلة في المدينة سيراً في شوارعها الصاعدة وبعض أحيائها الهادئة ذات الطراز الغربي في العديد من الأبنية. مررنا بكنيسة وكنيس، وكان دليلنا العزيز يتحدث عن أهمية المدينة وانفتاحها أمام الأجانب منذ بداية عصر النهضة. وبعد استغراقنا في الاستماع إلى حديثه، كانت المفاجأة الجميلة المدهشة، حين وقف بنا الأستاذ المرافق أمام بوابة حديد لصرح رخامي من ثلاثة طوابق ترتفع فوقه مئذنتان شامختان، فتبسم وقال: هنا آخر المشوار، انظروا.. هذا مسجد كوبيه.

ورغم أن شغفي مزمن بالتراث المكتوب أكثر من صروح الحجارة، إلا أن اكتشاف ذلك الأثر الإسلامي القائم على حافة المحيط الهادئ هزني من الأعماق. ولا أدري كيف انتابني شعور أثيري غامض، واجتاحت كياني كله موجة روحانية غامرة، وخيل إلي أني أمام الروضة الشريفة في المدينة المنورة. دخلنا بخشوع ورهبة، ولم أتمالك نفسي من روعة المفاجأة وجلال المكان، وغمرتني حالة ذهول وانخطاف لم أشعر بمثلها من قبل. وأخرجني من ذهولي زميل آسيوي يدرس الفيزياء النووية في إحدى الجامعات، فقد زار المدينة من قبل وراح يحدثني بلمحات من تاريخها.

المدينة ذات ميناء هام، وهي معروفة باستقبال مختلف الجاليات الأجنبية واحتضانها قبل أكثر من قرن، والمسجد مشيد على الطراز العثماني، وقد بادرت الجالية الإسلامية في المدينة سنة ١٩٢٨ للقيام بحملة تبرعات، وتم إنجاز بناء المسجد في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٥. ويوم تعرضت المدينة للدمار في الحرب العالمية الثانية، تصدعت بعض جوانب السور وظل المسجد قائماً، وكان الطابق الأساسي فيه ملجأ للجنود والضحايا. ومن يتأمل صور المدينة الباقية من تلك الأيام يعجب من هول الدمار الشامل المحيط بالمسجد.

وكما حمى الله هذا الحرم الآمن من قنابل الحرب، حماه كذلك من الزلزل الرهيب في يناير ١٩٩٥. وكم تمنيت أن أزور هذه المدينة الجميلة مرة ثانية لأتجول في مينائها وأصعد إلى جبالها بعربات الحبال أو بالوسائل الأخرى، رغبة بالاسترخاء في مياهها الحارة، لكن الزلزال كان أسرع مني.

في طريق عودتنا إلى طوكيو بالقطار السريع، عرفني الأستاذ نوتوهارا إلى مستعربة شابة كالوردة الجورية، فتبادلنا التحية على عجل كما هي عادتهم، وأخبرني أنها ستكون رفيقتي في السفر وستجلس مكانه إلى طاولتي، بينما جلس إلى طاولة مجاورة، وانشغل بالحديث مع رئيسة قسم اللغة الفارسية، ويبدو أن أوراق الندوة ومداخلاتها كانت مدار الحديث. كانت السيدة الشابة مدرسة في إحدى الجامعات ومترجمة واعدة، ولم أكن على علم بأنها زوجة لأحد الأساتذة العرب، فاليابانيون لا يكشفون أوراقهم أمام الغرباء.

لكن المصادفة هيأت لي أن ألتقي زوجها وأتعرف إليه بعد شهور من تلك الرحلة، فسألته عن زوجته والأطفال، فرد علي مستنكراً: «أطفال!.. من يابانية؟ أنت لا تعرفني، إذاً.. أنا لم أقبل أن يكون لي طفل من فرنسية، فهل أقبل أن تكون أم أبنائي يابانية؟» سألته بلا مجاملة: لماذا تزوجت، إذاً؟ أجاب

بلا تردد ولا خجل: «من أجل الإقامة، طبعاً»! لم أرغب في مزيد من الحوار، وكان ذلك لقاءنا الأول والأخير، لأن أقل نزعة عنصرية في عصرنا الحاضر، وحتى في كل عصر، جناية لا تطاق. لكني لم أفاجأ يوم أخبرني أحد أصحابه أنه تزوج فتاة من قريته لم تتجاوز المرحلة الإعدادية، مع العلم أنه أمضى ما يزيد عن ١٥ سنة في باريس، ونحو عشر سنوات في اليابان، ولله في خلقه شؤون!

أقسى ما واجهته هذه المدينة الجميلة ذلك الزلزال المروع الذي حدث في ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٥. وقد زاد عدد ضحاياه عن خمسة آلاف إنسان، بخاصة من بين المتقدمين في السن المقيمين في بيوت خشبية تعرضت للحرائق، بينما كان معظم الشباب والكهول يعيشون في بيوت حديثة من الخرسانة لم تتأثر كثيراً بالأضرار. ولا يمكن أن أنسى تطوع العديد من الطلبة للسفر العاجل وتقديم ما أمكن من وسائل المساعدة والإسعاف. وحين كنت أسألهم كيف سيتدبرون أمرهم في المدينة المنكوبة، بخاصة في ذلك الجو الشتوي القاسي، كانوا يؤكدون أنهم أخذوا احتياطاتهم كاملة ولا يمكن أن يشكلوا عبئاً على أحد، لا في المعيشة ولا في التنقل والمبيت، لأنهم متدربون على ذلك جيداً، فالمبادرة للتطوع

والعمل الوطني الإنساني بلا مقابل من السمات والمزايا التي ترسخت في طبيعة الشعب الياباني حتى استقرت في منظومة العادات والتقاليد.

والصورة التي لا يمكن أن أنساها من تلك الكارثة منظر الحرائق المضطرمة في البيوت، وكانت محطات التلفزة الخمس تنقلها مباشرة، وبعض القنوات راحت تستخدم الحوامات للتصوير من الجو.

المنتدى الثاني كان في جزيرة أوكيناوا الواقعة في أقصى الجنوب الياباني، وكانت في الماضي مع خمس وخمسين جزيرة صغيرة تشكل مملكة ريوكيو المستقلة، ولم تلتحق باليابان حتى ١٨٧٩. وقد استغرقت رحلة الطائرة نحو ثلاث ساعات إلا ثلثاً من طوكيو إلى ناها، العاصمة. وأطرف ما يقال عن علاقة هذه الجزيرة باليابان أنهما من أم واحدة وأبوين مختلفين، فاللغة واحدة والثقافة متقاربة إلى حد الاندماج، لكن تاريخهما مختلف. ويقولون إن الجزيرة دخلت في الحداثة من غير أن تمر بالمرحلة الإقطاعية كما هو شأن الشمال، كما أنها لم تتأثر بالبوذية. وبعد التحاقها باليابان، كان زوار كيوتو القادمون من أوكيناوا يستغربون من كثرة المعابد البوذية في تلك المدينة.

وخلال زيارتنا كان لا يزال في هذه الجزيرة قاعدة أميركية تضم نحو ٤٧ ألفاً من مشاة البحرية والقوات العسكرية الأخرى. وأفظع ما يلقاه اليابانيون من هؤلاء الجنود حوادث الاغتصاب، بخاصة من بين التلميذات القاصرات. وتمتلئ الشوارع بالمظاهرات الاحتجاجية، وقد يتلقون اعتذاراً من البيت الأبيض، ثم تهدأ العاصفة وتختفي كغيرها من الأحداث العابرة، رغم فظاعتها.

شاطئ العاصمة هنا جميل إلى حد السحر، والمياه نظيفة صافية، كما تنتشر في العديد من تلك المناطق شُعب مرجانية. وقد لاحظت أن معظم سكانها قصار القامة وأجسامهم نحيفة، وهناك شبه كبير بينهم وبين أشقائنا في بعض مناطق اليمن، بخاصة طيبتهم وحسن استقبالهم. ولعل أجمل ما شاهدت في أحد مسارحها المكشوفة في الهواء الطلق رقصة الدلافين واستجابتها المدهشة لأوامر المدرب، حتى كأنها ليست حيوانات عجماء، إنما هي كائنات رياضية عاقلة في هيئة أسماك!

واجهات المساكن تلفت نظر الزائر أيضاً، فعلى جانبي البوابة يربض شيسا، وهو حيوان شرس يشبه الكلب، لكن رأسه أضخم قليلاً وفكيه مرصوفان بالعديد من الأسنان. والأهالي

يعتقدون أنه يحمي الدار وساكنيه من خطر الأشباح المداهمة والأرواح الشريرة التي يمكن أن تتسلل إلى البيوت. وزيادة في الاحتراس يقيمون جداراً وراء البوابة وبارتفاعها ليفصل بينها وبين باب البيت، لأن الأرواح تسير بخط مستقيم، كما يعتقدون. والمؤسف أنني لم أستسغ ألوان الطعام هنا أيضاً، رغم التمارين اليومية التي تابعتها بنجاح في طوكيو، وربما كان السبب طغيان ألوان من الأطعمة البحرية لم أستسغ طريقة تحضيرها، وربما كان للموقع المداري الحار أثر في ذلك. لكن الطعام ليس مشكلة ما دام في المؤسسات مجال لاختيار ما تشاء، وقد تحظى بنوع من أقراص الأرز المحمصة بشكل جيد ونكهة لذيذة.

تحملت أوكيناوا ويلات الحرب كما تحملتها طوكيو ومعظم المدن الأخرى وربما أكثر، فقد كانت الخندق الأخير.. ويحكون عنها قصصاً أغرب من الخيال. وقد قرأت أكثر من رقم عن عدد الضحايا، ومتوسط تلك الأرقام لا يقل عن ٢٢٠ ألفاً، كان نصفهم تقريباً من المدنيين، ونحو ثلاثة عشر ألف أميركي. ومعاركها بالتأكيد لا تقل فظاعة وهولاً عن ضرب هيروشيما وناغاساكي معاً. ويروى أن كثيراً من الصبايا والسيدات، خصوصاً من العاملات في المشافي الحربية داخل الكهوف، لجأن إلى الانتحار ولم يسلم حتى الأطفال من تلك

الكارثة. ويقال إن كثيراً من طالبات المدارس والمعلمات ألقين بأنفسهن من أعالي الجروف الصخرية إلى البحر، خوفاً من الاغتصاب.

وعلى مقربة من مطار ناها، نفق كانت قيادة البحرية اليابانية في الجزيرة قد اتخذته مركزاً لها، وفيه آلاف من الضباط والجنود، وقد انتحروا جميعاً بعد إعلان الاستسلام. وكنت قرأت في الصحافة اليابانية مقالاً لكاتب هندي ينتقد الحكومة المركزية في طوكيو بشدة جارحة، ويتهمها بالتحامل العنصري لأنها تركت أوكيناوا وشعبها يواجهون حرب إبادة امتدت أكثر من ثمانين يوماً، ولم يسعفوا إخوانهم بأي سند أو غطاء، مع أن الحرب كانت على وشك الانتهاء. ولكن الشعب العظيم استعاد عافيته وعشقه للحياة، وترك أهوال الحرب وآثارها هاجعة وراءه في ظلال المتاحف وكتب التاريخ.

هوكَّايدو Hokkaido

إذا خطر لك أن تعرف جمال البلاد التي تزورها، فما عليك إلا أن ترجو إحدى الجميلات أن تكون دليلتك السياحية ورفيقة الأنس والاكتشاف والتجوال. وأود أن تدرك معي، بلا مبالغة ولا مجاملة أو إيهام، أن ليس في مشارق الأرض ومغاربها، من بنات جدتنا حواء، إلا الحسان الرائعات مظهراً أو ثقافة

أو معاملة. ويكفي أن نتذكر في ذلك رواية ماركيز «الحب في زمن الكوليرا» ورواية كاواباتا الرائعة: «الجميلات النائمات». وهذا ما تيسر لي بفضل المصادفة السعيدة، وربما لحسن الطالع وتناغم النجوم في مدار الفلك العجيب.

لقد أتيح لي أن أسافر مرتين إلى جزيرة هوكَّايدو، موطن الآينو سكان البلاد الأصليين، في أقصى الشمال الشرقي من اليابان. مرة كانت رفيقة الرحلة الجوية رسامة لا تخلو من هبَّات جنون عاصفة كزوابع الخريف، قبل أن تسكب أنواءها في لوحة موشاة بنوع من الأزهار، توحي لمن يتملَّى جمال بساطتها ورونق ألوانها بأنها حدقات أطفال مشرقة بالضحك والفرح. وكنت أستغرب ذلك التناقض المزاجي السافر بين رقة الإبداع وحدة الهياج العصبي لدى تلك السيدة. لكن مدينة أساهيكاوا المترفة بالجمال، بدءاً من اسمها ومعناه: نهر شمس الصباح، إضافة إلى مطارها الهادئ الأنيق، خففت عني شراسة الفنانة وكثافة أجوائها المعتكرة.

وكانت الثانية رحلة بحرية إلى مناطق مختلفة عن الأولى، ورفيقة الدرب محررة في دار نشر كبرى مختصة بدراسة الأعشاب والأزهار الطبية والعطرية ونشر كتب عنها. أطلقت على دليلتي هذه اسم سيدة الخزامى لأنها طافت بنا بين مروج

الرابندا، واسم هذه الزهرة باليابانية مأخوذ من الإنجليزية Lavender، اللاوند أو الرند، وإن كانت «الخزامى» أقرب وأدق في الترجمة. وقد أمضينا يومين كاملين، متنقلين بين الحقول والمخازن التي تعرض تلك الأعشاب والأزاهير بعد تجفيفها، والجميل أنها تحتفظ بألوان زاهية بين البنفسج والأرجوان. ثم أمضينا يوماً في سابُرو وآخر في أساهيكاوا.

لكن سوء الطالع يفاجئني أحياناً بأشياء لم تكن في التصور ولا الحسبان. كانت الجولة بين حقول الخزامى المترامية ممتعة حقاً. لكننا حين رجعنا من العاصمة إلى مدينة أساهيكاوا لنستقل الطائرة عائدين إلى طوكيو في اليوم الخامس من الزيارة، بدأت ملامح الخوف ترتسم على وجه السيدة. في المطعم، نصحتني أن يبقى نظري واهتمامي مركزاً على طبق الطعام، ولا ضرورة لتأمل المكان وروّاده. سألتها مستغرباً عن السبب، أجابت: سنتحدث غداً. وكنت متشوقاً للتجوال في المدينة التي زرتها من قبل، لكنها راحت تعترض بشدة، هامسة: لا تنسَ أننا غرباء هنا! لم أستطع في البداية أن أفهم سبباً لذلك التصرف الغريب، ثم تبين لي أنها ولدت ونشأت في أوكيناوا، أقصى جزيرة في الجنوب. ومن أيام الطفولة، كانت تسمع حكايات مخيفة ترويها الجدات عن

أشرار بدائيين وقطاع طرق في غابات هذه الجزيرة، خصوصاً أن صور رجال الآينو بلحاهم السوداء المتهدلة تبدو مفزعة. لم أقتنع بما تحمل في ذاكرتها من أشباح الحكايات، وحاولت أن أحدثها عن زيارتي الأولى لهذه المدينة الجميلة وشعبها الأنيس، لكن السيدة التي لم تغادر طفولتها بعد، لم تستعد شعور الطمأنينة حتى دخلنا المطار...

اسم الجزيرة يعني كما ورد في المعجم الجغرافي «إقليم البحر الشمالي» وعاصمتها سابُرو، وهي مدينة حديثة، يرجع تاريخها إلى مستهل النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكنها بدأت تنمو وتزدهر في عصر الإمبراطور ميجي، ولم تنعم بشهرة عالمية حتى ١٩٧٢ حين أقيمت فيها ألعاب الشتاء الأولمبية. ويبدو بوضوح أن الجزيرة لم تلتحق بالبر الرئيسي وحكومته المركزية إلا في بدايات عصر النهضة الحديثة.

تمتاز عاصمة الإقليم هذه بحديقة طولانية تتوسط المدينة وتفصل بين شمالها وجنوبها، وتمتد نحو ١٥٠٠م. وفي طرفها الشرقي يرتفع برج التلفزيون ما يقارب مئة وخمسين متراً، وفيه إطلالة رائعة على الحديقة من ارتفاع تسعين متراً أو نحو ذلك. ولا أدري لماذا لم أعبأ بذلك الارتفاع، ولعل جمال الحديقة المترامية على مد النظر أبعد عني كل خوف مرضي.

وكان التجوال في تلك الحديقة مع الغروب نزهة أنيسة ممتعة، قبل أن تداهمك برودة الليل. وقد جرى بناء البرج في ١٩٥٧، أي بعد مئة سنة من تأسيس المدينة، وربما إحياء لتلك الذكرى. إن مهرجان الليلك في أواخر مايو (أيار) يعد عرساً رائعاً من أعراس المجتمع والطبيعة في هذه المدينة الناضرة، كما حدثتني رفيقة الرحلة التي شهدته ثلاث مرات. ولكن للشتاء موسمه المتميز في الفرح أيضاً. ويقولون إن مهرجان الثلج في أوائل فبراير (شباط) من أجمل ما تشهده العاصمة من مواسم واحتفالات فنية واجتماعية، لكني حرمت نفسي من حضور المهرجان مرتين، لأن الجسم الهش لا يحتمل قسوة ذلك البرد، رغم الدفء الإبداعي الذي يزين سابُرو، وشقيقتها الصغرى أساهيكاوا كذلك، بأشكال مدهشة من تماثيل الثلج وصروحه المدهشة وأطياف الصبايا اللواتي يحلو لهن الانطلاق والمرح فوق بياض الطبيعة الحريري وكأنهن أسراب من فراشات الربيع.

في الرحلة الأولى نزلنا في مطار أساهيكاوا. وقد رغبت السيدة أن تزور صديقة لها في مدينة وكّناي بأقصى الشمال، ولم يكن للغريب أن يعترض، رغم إعجابي بالمدينة التي تعد الثانية بعد العاصمة. كانت رحلة متعبة في قطار يفتقر إلى

أناقة قطارات العاصمة وسرعتها. ومع أني من هواة النوم في وسائل النقل الحديثة، وحتى في باصات القرى الهرمة، إلا أن تلك الرحلة الطويلة عصفت بسكينة النوم ولم تسمح لها بالقدوم. لكن استقبال الصديقة كان لطيفاً مفعماً بالأنس والمسرة، أيقظ في ذاكرتي روعة الصداقات الجامعية وغناها. وقد تجولنا بصحبتها في أرجاء المدينة وتوقفنا طويلاً في الميناء، ورحت أتأمل السفن الروسية القادمة من جزيرة سخالين القريبة، ثم ذهبنا للعشاء.

كانت مضيفتنا مسيحية، وهي ألطف من صديقتها بكثير، ولعل برودة الشمال تزيد من رقة الناس وحسن معشرهم. أخذت السيدة تحدثنا أن المدينة تعود بتاريخها إلى القرن السابع عشر، وأهاليها كانوا من شعب الآينو سكان الجزيرة الأصليين، ويروى أن هؤلاء هم من المهاجرين القادمين من القفقاس في مراحل تاريخية غابرة. وقد جرى تجديد المدينة في أوائل القرن العشرين، وبلغت أوج ازدهارها بعد انتصار اليابان على القيصرية الروسية في ١٩٠٥ واستيلائهم على المناطق الجنوبية من سخالين. لكنها عانت من الإهمال، بعد الهزيمة في الحرب العالمية الثانية، وأقامت فيها حامية عسكرية أميركية وتضاءل عدد السكان.

كانت درجة حرارة الجو في ذلك المساء دون العشرين، ولم يكن ذلك مريحاً لي فاكتفيت بالسهر حتى العاشرة، واعتذرت منهما لأرجع إلى الفندق كاسفاً بخفي حنين، تاركاً الصديقتين تستعيدان ذكريات الدراسة والشباب. وفي اليوم التالي عدنا إلى أساهيكاوا.

مدينة جميلة تقع في قلب الجزيرة، ويقولون إن عمرها لا يزيد عن سبعين سنة إلا قليلاً. وهذا الرقم السبعيني متعلق بزيارتنا في صيف ١٩٩٤. كانت قرية صغيرة على نهر إشيكاري نحو سنة ١٨٩٠، وأخذت تنمو مع السنين حتى صارت بلدة في أوائل القرن العشرين، ثم تحولت إلى مدينة خلال الربع الأول من ذلك القرن. وهي معروفة بأنها أبرد مدينة في اليابان، ويقولون إن درجة الحرارة فيها تهبط شتاء إلى ٤٠ تحت الصفر. وفي سنة ١٩٠٢ سجلت محطة الأرصاد الجوية فيها هبوط درجة الحرارة إلى ٤١ تحت الصفر، وكانت تلك علامة فارقة لا تنسى في تاريخها. والمدينة تمتاز بمهرجان الشتاء وتشهد تنافساً عالمياً في إبداع التماثيل والصروح الفنية الرائعة من كتل الثلج، كما هي حال العاصمة سابُرو. لكن أساهيكاوا تنفرد بحديقة الحيوان فيها، ولا سيما مشهد الدب القطبي وهو يغطس في الماء، أو مشهد سرب من

الفقمات المدللات وهن يخطرن على الجليد في موكب أشبه ما يكون بموكب راقص. ولكي يكون الزائر آمناً على نفسه من أي خطر، زودوا حظائر الدببة والنمور والذئاب السوداء بقباب زجاجية يطل منها المشاهد على الحيوان الذي يرغب برؤيته في شبه بيئته الطبيعية، بلا خوف أو حذر.

يقولون إن عدد الأنهار المتدفقة من سلسلة جبل دايسِتسو والجبال المجاورة له تقارب ١٢٠ نهراً، وبعضهم يرفع الرقم إلى ١٣٠ أو يزيد. ونظراً لوفرة الأنهار والجداول التي تخترق المدينة أو تمر من حولها، فقد حفلت بعشرات الجسور، ولم آخذ كلام مرافقتي بجد حين ذكرت أن في المدينة ما لا يقل عن ٧٠ جسراً. لقد تركتها تتأمل الذئب الأسود في حديقة الحيوان، ولم أرهق رأسي بمعرفة عدد الأنهار أو الجسور، يكفي أني استمتعت بجمال المدينة، بخاصة متحف الثلج حيث أمضيت نحو ربع ساعة ولم أشعر ببرودة قاسية، ولعل الجمال الذي يمزج بين إبداع الفن وروعة الطبيعة ينسينا هشاشة أعصابنا ويمنحنا طاقة جديدة لا عهد لنا بها. كما أن منظر الجسر المعلق، بلونه الأخضر الزيتوني، كان جديراً بالزيارة والتأمل.

الرحلة البحرية برفقة سيدة الخزامى كانت مختلفة بكل المعاني. قبيل منتصف الليل كنا نعبر ميناء طوكيو، وحقيبة

كل منا مشدودة إلى ظهره وكتفيه، ونحن متجهان إلى سفينة عملاقة أشبه ما تكون بقلعة عائمة. كانت سيدة الخزامى خبيرة بالرحلات البحرية، فسرت وراءها كالمشدود بخيط سحري صعوداً وهبوطاً حتى عثرت على الممر المطلوب، فمضينا نعبر العديد من الأبواب المرقمة حتى وصلنا حجرتنا المحجوزة، وهي تضم ستة أسرة مرتبة بشكل مزدوج من طابقين، لا يفصل بينهما أكثر من متر. أخذنا الزاوية الأخيرة إلى جانب الكوة الصغيرة المطلة على المحيط، وتحتها أريكة وثيرة تكفي لجلوس اثنين. تأملت السريرين العسكريين وسألت السيدة بنبرة لا تخلو من مغزى تآمري: أيهما تختارين؟ نظرت إلي شزراً وقالت بجدية ملغومة بنبرة ساخرة: «أنتم الرجال تحبون دائماً أن تكونوا في الأعالي، وأنا يكفيني هذا الأرضي».

ولم نكد نرتب أمتعتنا في الخزانة المجاورة حتى دخلت عائلة يابانية: والدان وفتى وطفلة، بادرونا بتحية لطيفة مصحوبة بانحناءة مرسومة بدقة إلكترونية، وأخذوا الأسرة الأربعة على جانبي الباب. وبينما راحت الزوجة ترتب الملابس في خزانتهم، نشر الرجل أوراقه على الطاولة الصغيرة وانهمك في عمله. رمته رفيقتي بنظرة ضجرة وتمتمت: «انظر، يبدو أن الرجل مهندس أو موظف كبير في شركته، جاء ليستكمل

عمله هنا، لأنه عاجز حتى عن الاستمتاع بإجازة قصيرة مع عائلته». ثم رفعت صوتها قليلاً: «هل تعلم أن كلمتي: كايشا (شركة) وشاكاي (مجتمع)، لهما شكلان متشابهان في اليابانية، إنما بترتيب مقلوب»! شعر الرجل أن المرأة تعنيه في هجومها النزق، فراح يلملم أوراقه على عجل، بادل زوجته نظرة خاطفة، ثم نهض وخرجوا جميعاً.

يبدو أنها قرأت بعض الاستغراب أو التساؤل على وجهي، فقالت موضحة: «أنتم الأجانب تستمتعون بإجازاتكم أكثر منا، وكان لا بد أن أوجه ملاحظة لهذا الرجل المشغول عن أطفاله بأوراقه اللعينة. لو كان مسافراً وحده في مهمة لما أغاظني، لكنك لم تلحظ طفليه وهما يحومان حوله متململين...». لم أعلق على أمر لا يعنيني، لكني خرجت بمعرفة كلمة يابانية جديدة لا يمكن أن أنساها، وهي بَكاBaka ومعناها: غبي، أحمق، لعين.. وما شابه من مفردات السخرية اللاذعة، وهي تتردد كثيراً بين الزملاء والأصحاب، بخاصة بين الشباب، وإن كانت لا تخلو من مداعبة خشنة.

كان الليل قد تخطى منتصفه حين انطلقت بنا القلعة العائمة على حرير المحيط الهادئ، وهو ملفوف بالسكينة والهدوء فعلاً وبصورة مدهشة، ولم نشعر في صحبته طوال

ست وثلاثين ساعة إلا بخلجات لطيفة أشبه ما تكون بدغدغة الأمهات لأطفالهن قبيل النوم. قالت السيدة الأربعينية بابتسامة ناعمة: ما رأيك بإكمال السهرة على السطح حيث سنتناول العشاء؟ كان متن السفينة يشتمل على أكثر من طابق وفيه أكثر من شرفة مفتوحة على الماء والسماء، وقد راقت لي رياضة الصعود والنزول حتى ظنت السيدة أن دوار البحر أخذ يعصف بي وفقدت شيئاً من توازني، فوضعت يمناها على كتفي وأشارت باليسرى إلى مائدة خالية في زاوية قريبة من الحافة، فشكرتها على رهافة الذائقة الجمالية وحسن الاختيار، وكان القمر الساهر معنا قريباً من تمامه، والبحر مغمور بسكينة عجيبة وكأنه صوفي في حالة خشوع.

تناولنا عشاء خفيفاً وأخذنا نرتشف شرابنا على مهل، سابحاً كل منا في عالمه مع البدر والنجوم وإيقاع حركة السفينة الرتيب. وفجأة انطلقت اليمامة تهدل بصوت سحري خافت، توشيه مسحة رقيقة من الأسى، وكأنها تناجي طيفاً حبيباً يداعب خيالها المرهف ويحتضن رأسها الصغير. سماء صافية إلا من مناديل شفافة متناثرة من الغيوم، كوكب دري يطل علينا من عليائه ومحيط هادئ، بكل ما تعنيه الكلمة. عذوبة الصوت الشجي، وأسراب من الصبايا والشباب تطوف

كالفراشات وترفرف هابطة صاعدة من حولنا، وذكريات الأهل والأحبة والوطن.. ذلك كله أثار موجة من الشجن لم تلبث أن اعتصرت حبة القلب حتى فاضت العينان بالندى. وكان لا بد أن نلوذ بنعمة النوم، وقد نشر الفجر خيوطاً وردية من وشاحه الشفيف على صفحة السماء.

نِكُّو وكيوتو

زيارة نِكُّو تمتاز بنكهة مختلفة. بلدة وادعة في أحضان الجبال تبعد نحو ١٥٠ كيلومتراً إلى الشمال من طوكيو، وحكاية جسرها البرتقالي المقدس تستثير خيال الزائر بغرابتها فيبحث عن مزيد من الأساطير. يحكى أن المنطقة كانت في العصور القديمة مركزاً لعبادة الجبل، وكانوا ينظرون إليها برهبة وإجلال لأنها ملتقى الآلهة والقوى الغيبية والكائنات الخارقة. وفي سنة ٧٦٦ دخلت التاريخ بفضل الكاهن البوذي شودو (شونِن) وهو في طريقه للصعود إلى جبل نانتاي للعبادة، وبصحبته عدد من طلابه. لكن نهر دائياعترض طريقهم ولم يتمكنوا من العبور، نظراً لغزارته وشدة جريانه، فجلسوا يبتهلون أملاً في إيجاد طريقة لاجتيازه. وتقول الحكاية إن إلهاً ظهر أمامهم ومعه حيَّتان هائلتان، إحداهما

حمراء والأخرى زرقاء، ألقى بهما على النهر فالتفَّتا وتحولتا إلى جسر يشبه قوس قزح، وقد برزت على حافتيه حدبات ليتمسك بها العابرون. هكذا انتقل الكاهن ومريدوه إلى الضفة الأخرى، وحين التفتوا وراءهم فوجئوا باختفاء الجسر وبانيه. وقد أسس هذا الكاهن أول معبد في تلك الجبال. ويقترن باسمه هناك أكثر من معبد بوذي ومزار شنتو.

مدة يومين وليلة لا تكفي لمشاهدة روائع هذه المدينة الساحرة بمناخها الجبلي وجمالها الطبيعي وروائعها العمرانية. يكفي أن تسير في حديقتها التقليدية وتتأمل تلك الغابة العجيبة، بنهرها وسفوح جبالها وأشجارها وحتى حجارتها، وربما تنسى نفسك وتذوب في صفاء الجو وروعة الجمال. وهناك شارع طويل محفوف بصفين من أشجار الأرز الياباني، ويقال إن عمر تلك الأشجار لا يقل عن ٣٠٠ سنة، وربما ٤٠٠ سنة. وهي تعد بالآلاف.

والمدينة مشهورة بصرحها العمراني المدهش، مزار توشوغو، وهو من أكثر معابد الشنتو اتساعاً وترفاً في التصميم والزخرفة وغرائب التشكيل. ويضم الضريح رفات توكوغاوا (إياسو)، أعظم حاكم عسكري في تاريخ اليابان ورأس السلالة التي حكمت البلاد ما يزيد عن ٢٦٠ سنة. وهذا المزار مجمع

هائل الضخامة والترف، ويحتوي على أربعين معلماً أو أكثر، لكل منها وظيفة معينة. وقد أمر ببنائه حفيد إياسو، واستمر العمل فيه عشرين سنة. وتشير الروايات التاريخية إلى أرقام مذهلة، فقد بلغ عدد العمال والحرفيين الذين اشتركوا في إقامة المجمع الفخم والمرافق الملحقة به نحو أربعة ملايين ونصف المليون من الأيدي العاملة. وفي زخارفه ونقوشه ما بين الداخل والخارج نحو ٥٠٠ كيلوغرام من الذهب و٣٥٠ كغ من الفضة. وتشير بعض المراجع إلى أن تكاليفه النهائية بلغت أرقاماً خيالية مذهلة.

وإذا كانت زيارة واحدة لا تكفي، فإن متابعة التفاصيل قد تهم المهندس المعمار أكثر من كاتب مسكون بغرائب التاريخ وأساطير الواقع. لذلك سأقتصر على إيراد ما تبقى في الذاكرة من تلك المعالم والتحف والكنوز التي تعبر عن مدى الترف والأبهة في بدايات ذلك العصر، وكانت إيدو فيه مركز الحكم. الباغودا أول ما يلفت النظر من بعيد، وهي برج شامخ من خمسة أدوار، وهذا الطراز الصيني في العمارة مجلوب أساساً من الهند، ويقال إن الباغودا ترمز إلى الضريح الذي يضم رفات بوذا.

هناك ديك ضخم يطل من أعلى عارضة البوابة الخارجية،

ويواجهك في الداخل ديك آخر من البرونز، والديك الذي يشغل مكانه اللائق بين الأبراج الصينية اليابانية، يعد من العلامات المميزة لمعابد الشنتو لأنه الطائر الجميل الذي يبشر بالفجر. ولا بد هنا من المرور بمكتب التذاكر لشراء بطاقة الدخول، وتمضي إلى الداخل عبر أكثر من بوابة، وتصعد عدة سلالم حجرية، وتمر بالعديد من الغرف والتماثيل، وأولها كلاب الحراسة الضارية، حتى تصل إلى بوابة الضريح بطرازها المعماري المتميز، وهي تشبه صقراً هائلاً يهم بالطيران مزين الصدر والقاعدة التي يجثم عليها بزخارف فنية مدهشة تعد من أروع آثار الشرق العمرانية.

ويكفي في هذا المجمع الرائع أن تستمتع بتأمل آلاف المنمنمات المنقوشة أو المنحوتة، إضافة إلى أشكال متنوعة من التماثيل البارزة في مظاهر وأوضاع مختلفة من الحراس والكهنة إلى الراقصات والموسيقيين، ومن وحيد القرن والتنين والفيلة إلى القطة النائمة والطيور الخرافية وتماثيل القرود، خصوصاً أولئك الثلاثة المعبرة عن الحكمة: «لا تنظر، لا تتكلم، ولا تنصت»! الأول غطى عينيه بيديه، الثاني كمم فمه، والثالث أغلق أذنيه.. المهم أن تبعد عن الشر والأذى بأية طريقة. ولم تكن رفات إياسو مودعة في أي من هذه القاعات، على كثرتها،

إنما قيل لنا إنها موضوعة في باغودا خارج ذلك الصرح.

وهناك أيضاً عشرات المعابد والمزارات الأخرى، ولكن معبد رينوجي البوذي يعد أشهر معابد نِكُّو، بخاصة أنه يقع في المكان الذي بنى الكاهن شودو معبده البدائي الأول. إن كثرة المعالم التاريخية ذات المسحة الدينية، إضافة إلى جمال الطبيعة، تجعل من هذه المدينة وما حولها مركزاً من أهم المراكز التراثية والسياحية والفنية في اليابان. ولعل المدينة ومعالمها الأثرية والدينية تنفرد بمزايا من التآلف والتآخي والتفاهم بين معتنقي الشنتو والبوذية. فالأولى هي الديانة اليابانية القديمة والمتسمة بتقديس الأسلاف والتماس الصحة والبهجة والنجاح في الحياة. واللون البرتقالي الزاهي هو الذي يكسو واجهات معابدهم وبوابات مزاراتهم. أما البوذية الوافدة من الصين فهي من أجل السعادة في الدار الآخرة، ولون واجهات معابدها أسود قاتم. إن هذا التآلف الروحي والحضاري العجيب، الذي يصل حد الاندماج أحياناً، يعبر عن مشاعر الشعب الياباني الراهنة، وهي مشاعر مفعمة بالطيبة والتآخي والاحترام المتبادل، بعيداً عن كل ضغينة أو تنافر أو عدوان.

أما مدينة كيوتو الحافلة بالمعابد والمزارات والصروح

العمرانية فهي لا تقل جمالاً عن نكُو، وإن لم تكن جبلية ولا مركزاً دينياً، لكنها تعد حاضنة التراث الياباني ومستودع الثقافة الوطنية، ومسرح الفنون العريقة من رقص وموسيقا وغناء، إضافة إلى كونها العاصمة الإمبراطورية طوال ما يقارب ألفاً ومئة عام. لم أكن وحدي في هذه الزيارة، بل كانت أسرتي الصغيرة بصحبتي، ولعل المعبد الذهبي كِنْكاكُجِي من أشهر معالم هذه المدينة. وقد ازدادت شهرة المعبد بعد أن أقدم على إحراقه كاهن شاب معتوه سنة ١٩٥٠، ثم أعيد بناؤه بعد سنوات. يقع المعبد في الطرف الشمالي من المدينة، وهو مؤلف من ثلاثة أدوار، يمتاز كل دور بطابع معماري مختلف، فالطابق الأرضي أقيم على الطراز التقليدي في عهد سلالة هييان (٧٩٥-١١٨٥)، ويمتاز الطابق الأوسط بطراز فرقة زِنْ الصوفية، أما الأعلى فينفرد بطرازه الصيني الخاص بمعابد بوذا التقليدية.

وقصة إحراقه أثارت خيال ميشيما*، الروائي المسكون بعشق التقاليد اليابانية الأصيلة فأبدع من وحي الحدث روايته الموسومة بـ «معبد الجناح الذهبي». وبطل الرواية، كما هو في الواقع، مساعد كاهن عاش طفولته منبوذاً في المجتمع لأنه كان يشكو من عسر في النطق، وكان يرى أن ذلك

المعبد آية في الجمال، والفتى مسكون برغبة الاستحواذ على ذلك الجمال. واختيار ميشيما لهذا الحدث جاء تعبيراً، ولو في دلالته الرمزية، عن رفضه الاحتلال الأميركي. وفي تصوري أنه كان يوحي بأن تصرف ذلك الشاب المولع بالجمال لم يكن أكثر من ثأر فردي يائس، وكأنه يقول: إن الاستئثار بالجمال الذي تعشقه وتسعى إلى تدميره بيديك خير من أن تتركه نهباً في أيدي الأعداء! وهذه فكرة غير سليمة، لأن التراث الحضاري الإنساني يجب أن يبقى مصوناً، أينما كان لأنه يحمل قيمته بجماله وتاريخه، وليس بالمكان الذي يحتويه.

مزار جبلي آخر للشنتو خاص بالثعلب، وهو معبد إناري الذي يجتذب الزائر الفضولي بأعمدته البرتقالية وصرحه المترامي الذي يتسلق سفح جبل إناري ذاته. ويقال إن تاريخ تأسيسه يعود إلى أوائل القرن الثامن الميلادي، ولم يسمح لي ضيق الوقت بزيارته، بخاصة أني لا أحب الثعالب لا واقعاً ولا رمزاً. ويقول الأصدقاء الذين رافقونا في تلك الجولة: إن في اليابان عشرات الآلاف من المزارات الخاصة بالثعالب، وهي مزودة بتماثيل فنية متنوعة لذلك الحيوان المراوغ، كما نصفه في ثقافتنا، ولكنه عندهم راعي الأرز والتجارة وهما، إلى جانب الصناعة، من أهم الأركان الأساسية في الحياة

اليابانية المزدهرة.

زيارة القصر الإمبراطوري والحديقة الواسعة المحيطة به تضعها في أول المعالم التي تفكر برؤيتها. والحديقة بمروجها وأزاهيرها وأشجار كرزها الباكي تذكرك بالصفصاف الباكي في وادي بردى، بخاصة تلك الممرات الترابية المفروشة بالحصى. ولكن بعيداً عن المعابد والقصور، تمتاز كيوتو بمركز المؤتمرات الدولية وقاعته التي تستوعب ألفي مشارك. وهناك أيضاً استوديوهات المدينة السينمائية، وتعد من أضخم المرافق والمواقع المخصصة لتنفيذ عشرات الأعمال السينمائية والتلفزيونية، بخاصة التاريخية منها. لم يكن لدينا الوقت الكافي للتجوال في أزقتها القديمة، وارتداء لباس الساموراي كما نصحني أحد الأصدقاء، ولم نستمتع بمجلس فتيات الجيشا، إنما اكتفينا بمشاهدة تصوير أحد الأعمال الدرامية في إحدى الساحات الترابية الواسعة في ضحوة يوم صاف. ومن مزايا نجوم الفن الياباني ولطفهم الآسر أن كوكبة منهم كانت تمثل مشهداً قتالياً بين عدد من رجال الساموراي، وحين وقفنا نتفرج عليهم على مقربة من ذلك الموقع، تبادلنا التحية فأوقفوا التصوير وسمحوا لي بالتقاط صور لرؤيا ورباب معهم.

ولمعرفة الأهمية التاريخية والسياحية، وحتى الاقتصادية التي تتمتع بها هذه المدينة الجميلة، يكفي أن أشير هنا إلى أن الصحافة ذكرت أن عدد زوار المدينة في السنة الأخيرة من القرن العشرين تجاوز أربعين مليوناً. ولعل سور الصين العظيم هو الموقع الأثري الوحيد في العالم الذي يمكن أن ينافس كيوتو في تسجيل مثل هذا الرقم القياسي في عدد السياح.

ويظل في أوراقي ومرايا ذاكرتي أكثر من مدينة كان ينبغي أن أتحدث عنها. تاكاساكي، إلى الشمال من طوكيو، لها زاوية خاصة وحميمة في الفكر والوجدان. إنها مدينة الصديق الدكتور تويويزومي وأسرته العزيزة، وهم من الأسر القليلة التي لم تنقطع عرى المودة والتواصل بيننا، خصوصاً في لقاءاتنا المتبادلة بين طوكيو ومدينتهم الوديعة. وكم طفنا في ضواحيها وشاهدنا تلك المروج الواسعة التي يصنعون ألواناً خاصة من أزهارها، كما يصنعون نوعاً فريداً من الورق الذهبي من بعض نباتها. وتمتاز المدينة بتمثال كانُّن، إلهة الرحمة، على قمة الجبل المجاور للمدينة. والتمثال البوذي الشامخ أنثوي القسمات يقف بلباس فضفاض أقرب للبياض، وطوله نحو ٤٢ متراً. ورغم إلحاح الصديق الذي رافقني، لم أدخل إلى جوفه لرؤية التماثيل الصغار، بل اكتفيت بتأمل ما

أبدعته أنامل الفنان من الخارج، وكأنه درة على تاج جبل كانُن. والمدينة مشهورة بإنتاج الحرير، وتتمتع بمزايا شعبية خاصة في أكثر من مهرجان.

وهناك مدينة أخرى كنت أحلم أن أتجول فيها وأطلع على معالمها بصحبة لفيف من الأصدقاء الأجانب، لكن برودة الثلج حالت دون ذلك. إنها مدينة كانازاوا، على شاطئ بحر اليابان في الجهة الغربية المقابلة لطوكيو. كانت زيارتنا لها في عطلة السنة الجديدة، وقد أمضينا الأيام الأولى من ١٩٩٥ فيها، وكنا مجموعة من معهد اللغة اليابانية: خمسة أجانب ومعلم ومعلمة أحضرت معها ابنتها الصغيرة. بقينا في تلك المدينة ليلتين والثلج يتساقط ولم يتوقف حتى ضحوة اليوم الثالث، ونحن في قطار العودة إلى طوكيو. وبينما راح الزملاء يتجولون مع المعلم في المدينة، بعد استلام الغرف والغداء مباشرة، آثرت البقاء في الفندق مخافة البرد، متنقلاً بين المقهى والممرات والمخازن المنتشرة على جانبيها، ومن بينها مكتبة صغيرة تصفحت عناوين معظم الكتب السياحية والفنية في رفوفها وتسليت بتقليب بعضها، مكتفياً بشراء خريطة المدينة وكتاب مصور واحد عن تاريخها. وكانت المفاجأة أنها حديثة جداً، وقد تأسست في ١٩٠٠.

لكن المفاجأة المدهشة أن المعلمة أخبرتني في اليوم التالي، ونحن على مائدة الإفطار، أنها ستنزل مع ابنتها قبيل الظهر للسباحة في تلك البحيرة الحارة الواقعة بين جناحي الفندق، وهي بحيرة صغيرة لا يقل عرضها عن مئة متر بينما يبدو طولها المكشوف ضعفي ذلك. وكنت لاحظت ساعة نزولي في الفندق أن هناك شباباً يسبحون فيها والثلج يتساقط، على مرأى من شباك غرفتي. وكنت أظن أن تلك البقعة المائية جزء من لسان البحر المجاور للفندق، وأن أولئك الشباب من عشاق رياضة الشتاء.

في البداية ترددت، ولم أكشف للمعلمة عن مخاوفي، ولكن حين لمحتهما متجهتين إلى البحيرة، أعددت نفسي للمغامرة راجياً ألا تكون طاقتي على احتمال الثلج أضعف من قدرة تلك الطفلة التي ما زالت في حدود العاشرة. لففت منشفة كبيرة حول جذعي وهبطت متجهاً إلى المسبح من باب خلفي، وقد تجاوزت بشيء من التحدي والمكابرة صدمة المشي حافياً على الثلج أكثر من عشرين متراً. ثم ألقيت بالمنشفة على الحافة الثلجية وغطست في المياه الحارة. عشرون.. وربما ثلاثون دقيقة مرت في لمحات خاطفة، ولعلها كانت من اللحظات النادرة التي قضيتها في أحضان الماء. وحين خرجت ولففت

جسمي بالمنشفة وبدأت أرتجف، راحت الصغيرة تضحك متعجبة من هذا العربي الخائف من الثلج إلى هذه الدرجة.

سوميدا والغابات

في ربيع ١٩٩٤ كان أخي يونس في زيارتي، وقد تجولنا طويلاً في طوكيو، وكذلك في يوكوهاما المجاورة فزيارة الحي الصيني فيها أو البلدة الصينية كما يسمونها كانت فرصة ممتعة، وغالباً ما كنت أتردد إليها مع الأصدقاء نتأمل روعة حديقتها العامة، ونمضي وقتاً مريحاً وممتعاً في جنباتها. إنها جنة الزنابق بلا منافس، على اختلاف أنواعها وألوانها. وأحياناً نتجول بين ذلك الحي والميناء، ونختار ما تيسر من مطاعمها العديدة وتحفها الصينية الرائعة. وبعد أن قمنا بأكثر من رحلة ريفية، واستمتعنا برؤية جبل فوجي من بعيد وسرحنا على مقربة من بحيراته، دعانا أحد الأصدقاء اليابانيين إلى المشاركة في نزهة مسائية على متن مركب في نهر سوميدا، داخل العاصمة.

كان الانطلاق من ميناء النهر في أساكوسا، وهي من أحياء طوكيو القديمة. وغالباً ما كنت أستمتع بالتجوال في ذلك الحي لزيارة معبده البوذي سِنْسوجي المكرس لربة الرحمة كانُّن. والمعبد مشهور ببوابة الرعد كامينارى ومصباحها

الورقي الضخم المتدلي من قوسها متميزاً بلونه الأحمر ومزيناً بأحرف صينية سوداء، وهو بطول أربعة أمتار، ويقال إن وزنه نحو ٧٧٠ كغ.

وتمتاز أساكوسا بطابعها الياباني القديم، وكنت أطوف في شوارعها الضيقة القريبة من المعبد، أتناول الغداء في أحد مطاعمها، أو أتجول بين محلاتها التي تعرض أنواعاً من الأواني الخزفية الرائعة وأقمشة الحرير الفاخرة المخصصة للكيمونو بألوانه المختلفة والمزينة بطيور الغرانيق وأزهار الساكورا والأقحوان وعروق الصنوبر والخيزران. وغالباً ما كنت آخذ زوادة كافية لأسبوع من الأفران التي تقوم بتحضير أقراص الأرز الشهية والمعروفة باسم سِنْبيه، وكانت هذه تذكرني بأقراص عيد الفطر في ريفنا أيام الطفولة المتباعدة.

السؤال الذي لم أجد له جواباً طوال ثلاث سنوات من التجوال الأسبوعي في طوكيو هو أني لم أستطع التأكد من عدد الأنهار فيها. وأكثر من ذلك أني سألت عديداً من الأساتذة والفنانين والأدباء، ولم أتوصل إلى الرقم الدقيق. في الكتب والصحافة والأحاديث ترد خمسة أو ستة أسماء: إيدو، آرا، سوميدا، كاندا، تاما.. وقد يذكرون شاكوجي أحياناً. لكن ثلاثة منها مؤكدة على الخرائط هي إيدو في أقصى الشرق وسوميدا ليس بعيداً

عنه وتاما في الغرب، ويقولون إن آرا هو القسم الأعلى من سوميدا. أما كاندا وشاكوجي فهما من روافد سوميدا. لكني أقلعت أخيراً عن هذه الهواية الجغرافية واكتفيت بغبطة التجوال وكرم المصادفة.

ولعل النزهة النهرية في سوميدا كانت من الذكريات الغالية في صحبة النهر الوديع حيث أمضينا سهرة ممتعة على متن مركب صغير، وتناولنا عشاء شهياً، ولم يكن عدد المشاركين أكثر من عشرين شخصاً، وقد مررنا تحت العديد من الجسور. والأستاذ الذي شاركنا النزهة أعلمنا أنها ١٣ جسراً، وهناك سيدة أكدت أن العدد ١٢ فقط. كانت الأمسية أجمل وأصفى بهجة من الاهتمام بالأرقام، لكن الإحصاءات تقول إن ٢٥ جسراً مقاماً على هذا النهر في طوكيو وحدها، وتمتد المسافة بين كل جسر وآخر نحو كيلومتر، وهذا يعني أن طول الشطر الذي يجري داخل العاصمة يقارب ثلاثين كيلومتراً قبل أن يصب في الخليج.

في تلك الأمسية الطافية على حرير النهر، أمضينا نحو أربع ساعات أنيسة في محادثات شتى. لم تكن الأبنية المطلة على النهر مغرية بالتأمل في غبش المساء، ولم نحمل معنا آلة التصوير. وربما كانت متعة الأحاديث، متنقلة بين الماضي

والحاضر، أكثر فائدة وجاذبية من تأمل الضفاف والمراكب العابرة. كانت معاناة طوكيو وما لحقها من قتل وحرق ودمار في الحرب العالمية الأخيرة مدار معظم الحديث. إن ما أصاب هذه العاصمة لم يكن أقل هولاً من آثار القنبلة الذرية، وهم يتذكرون أن ليلة واحدة من ربيع ١٩٤٥، أي قبل انتهاء الحرب بأشهر معدودة، كان عدد ضحايا الغارات فيها يزيد عن مئة ألف إنسان، وقد التهمت الحرائق مساحات واسعة من المدينة. ولكنها سرعان ما نهضت كالفينيق من تحت الأنقاض وتلال الرماد، أقوى وأجمل وأكثر نضرة وازدهارا.

وفي أوائل يوليو (تموز) في وسط العطلة الصيفية اقترح علي ثلاثة من طلبة الدراسات العليا أن نمضي أسبوعاً في الغابات. كان الطالب النشيط أوياماقد استعار سيارة عمه القائد النقابي لنستقلها في تلك النزهة، وكان يطيب لنا أن نترجم اسمه إلى العربية «الجبل الأزرق» وننادیه به أحياناً، وما من غضاضة في ذلك فالطبيعة أم الجميع، وفي كثير من أساطير الشرق يبجلون آلهة الجبال. وكان لجدّ الطالبة ياماموتو كوخ في تلك الغابة في منتجع مخصص لأساتذة الجامعات. وقد اصطحبت معها زميلتها توكورا الوديعة كطفلة. هؤلاء الطلبة صاروا أساتذة كباراً ولهم اليوم مكانتهم الأكاديمية، وليس لهم في مكنونات القلب والفكر والوجدان إلا

أطيب الذكريات وأصفاها.

كان الانطلاق صباحاً، وبعد نحو ساعة بدأنا صعوداً في طريق جبلي آمن وجميل. وتابعنا السير حتى بلغنا الموقع المطلوب. وفي منبسط غابي محاط بالتلال نزلنا، وكان علينا أن نشق طريقاً بين الشجيرات الكثيفة والأرض المكسوة بالأعشاب، وقد أحضروا معهم الأدوات المعدنية اللازمة لذلك من فؤوس ومناجل. ولم يكن الكوخ يبعد عن الدرب الزراعي أكثر من عشرين متراً، وخلال دقائق كنا أمام المبنى الريفي المؤلف من غرفتين ومطبخ وحمام، وأرضه مفروشة بعدد من حصر التاتامي.

كان السهر في الكوخ أو التجوال حوله في ضوء القمر متعة لا تنسى، خصوصاً في ليلة ٧/٧ حيث مضينا إلى بقعة خالية من الأشجار وبدأ الشباب بإطلاق الأسهم النارية في الجو لإنارة طريق العاشقين العائدين إلى الأرض، أميرة النسيج وراعي القطيع، أو النسرين الرامح والواقع في الفلك العربي. وكنا خلال النهار نتجول في المنطقة الجبلية، وكانت الطرق شديدة الانحدار وقد أثار شيئاً من مخاوفي فكتمتها ولم أجرؤ على الإفصاح أمام طلبة في عمر الورد. وفاجأني قائد الرحلة الشاب بأنه لم يزر تلك المنطقة من قبل، وأنه يستكشفها معنا لأول مرة. لكن الخرائط المتوافرة والعلامات والصور التي تضعها بلدية المنطقة وشرطة المرور تجعل السفر آمناً مريحاً،

وإن بدا خطراً في بعض المنعطفات الحادة.

أسبوع استثنائي في روعته وجماله وهدوئه أمضيناه في ذلك المنتجع الريفي، ولم نصادف أحداً من أصحاب الأكواخ المتناثرة في تلك الهضبة إلا في اليوم الأخير. كنا نعد وجبة الغداء بأنفسنا أحياناً، وغالباً ما كنا نأخذها في بعض البلدات المجاورة. وفي طريق العودة مررنا بمدينة ماتسموتو في مقاطعة ناغانو لزيارة قلعتها التاريخية المطلة كالصقر من بعيد بقمرة برجها الشامخ وأدوارها المتعددة.

ولقد طفت مع الشباب وعشرات الزوار بأدوار تلك القلعة التي تم بناؤها في أوائل القرن السادس عشر كحصن منيع في مرحلة تاريخية مثقلة بالحروب والصراعات الأهلية، وكانت مركزاً هاماً لعدة عائلات إقطاعية، وقد مرت بتحسينات متعددة في مختلف العهود. إنها تحفة معمارية رائعة بحجراتها وممراتها المتجددة. وهي تعد من أهم القلاع الباقية في اليابان. وقد دخلت في سجلات اليونسكو كمعلم أثري جميل من معالم التراث العالمي.

لغة الرموز

الذاكرة الشعرية المسكونة بخليط سديمي عجيب من

الوقائع والروى والأساطير تصور تلك البلاد وكأنها كوكب في فلك آخر، خارج مدار أرض البشر. ولعلها كوكب الملائكة والقديسين والشعراء وحور الجنان، كوكب المبدعين والسكارى والكادحين، فضلاً عن الياكوزا* (المافيا)، الكوكب البكر بطبيعته الساحرة المخيفة. إنها الجمال المخيف، خصوصاً بكوارثها المفاجئة بالزلازل والبراكين والأعاصير.. وحتى الانجرافات الصخرية والثلجية، ولا بأس أن نتغاضى قليلاً عن مشكلة التلوث الكيمياوي والإشعاع النووي. لكن الناس يستقبلون تلك الكوارث باستسلام قدري عجيب... وسرعان ما تصاب، أنت الزائر الغريب، بتلك العدوى السحرية الجميلة حين تذوب في بحر تلك الجموع البشرية اللاهثة في دروب العيش والعمل، والتي تقارب في تعدادها ١٢٥ مليوناً، يعيش منها في طوكيو الكبرى وضواحيها ما لا يقل عن ٢٥ مليوناً، مع أن مساحة الأرخبيل الياباني تبلغ ٣٧٦ ألف كيلومتر مربع، وهذه لا تزيد إلا قليلاً عن ضعفي مساحة سوريا. ونظراً لأن ما يزيد عن ٧٥٪ من الأرض اليابانية جبلية، فإن نسبة الرقعة الزراعية لا تزيد عن ١٤٪.

كانت الجزر اليابانية متصلة بالبر الآسيوي قبل ٤٠ ألف سنة، وبعض الدراسات توغل في الزمن إلى مئة ألف أو مئتي

ألف سنة. أما الآثار واللقى الفخارية المكتشفة فتشير إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. لقد أخذ الشعب الياباني الأبجدية من الصين، وكذلك الأبراج الفلكية وكثير من الأساطير، وحتى النظام الإمبراطوري، كما جاءته البوذية منها عبر كوريا. لكن هذه القضايا المستعارة اكتسبت ملامحها اليابانية وطبعت بهويتها الوطنية، وإن بقي فيها جذور وأطياف من منابتها الأصلية.

أول ما لفت انتباهي في ساحة الجامعة حلقات من الطلبة، فتيات وفتياناً، وهم يرددون في أوقات الفراغ مقاطع صوتية منغومة. كل حلقة مؤلفة من خمسة طلاب، يتناوبون الترديد واحداً بعد آخر:

Ka – Ki – Ku – Ke – Ko

Ma – mi – mu – me – mo

وهكذا تستمر اللعبة بإيقاعها المدرسي الرتيب في مشهد مسرحي لافت حتى تكتمل حروف الأبجدية...

خلال الأسابيع الأولى، كنت أمر بتلك الحلقات من الطلبة دون اهتمام، فلم أتجاوز حدود النظر والتأمل إلى الاستفسار، وإن دار في خاطري أكثر من سؤال. ولقد مرت السنة الأولى، دون أن يشغلني هاجس تعلم اللغة وضرورة التواصل مع

الناس بلسانهم، وكان الأستاذ فردوسي يسعفني ببعض العبارات، بخاصة أنه سبقني إلى طوكيو بأكثر من سنة. وحين بدأت بأولى الدروس، وأنا في السابعة والخمسين، تبين لي أن اللغة اليابانية* مقطعية منغومة وشعرت برغبة في تعلمها، إن استطعت سبيلاً إلى ذلك.

لغة الحديث بسيطة وتعلمها ميسور بشيء من الصبر والجهد والمثابرة، لكن المشكلة في صعوبة القراءة والكتابة: على تلاميذ المرحلة الابتدائية أن يتعلموا رسم ٨٨١ شكلاً أو رمزاً صينياً وحفظها، دلالة ورسماً، بمعدل خمسة أشكال في كل يوم دراسي. وكم شعرت بالضيق والإشفاق، وأنا أشاهد إحدى الأمهات تشرف على تعليم ابنتها حتى تحفظ تلك الأشكال الخمسة، وتتقن كتابتها بنقرات سريعة تشبه نقر العصافير لحبيبات الذرة البيضاء، في حين كان الأب جالساً معي في زاوية الغرفة المقابلة، وهو يرتشف كأسه بغير اهتمام. ويوم ترسخت صداقتنا العائلية، رجوت الأم أن تخفف قسوتها على طفلتها التي لم تبلغ العاشرة، لكنها رفعت راحة يدها في وجهي وكأنها تقول: «أنت غريب عنا، فلا تتدخل في ما لا يعنيك»! وبعد انتهاء الدرس القاسي، اقتربت الطفلة من والدها فقال لها: «أمي كانت أقسى، ولولا قسوتها ما نجحت في

حياتي وحصلت على عملي». وشعرت أن الكلام كان موجهاً إلي، بطريقة مهذبة، أكثر مما هو لابنته!

والطالب لا ينتهي من المرحلة الثانوية قبل أن يتقن ١٨٥٠ شكلاً. ولا بد أن يرتفع هذا العدد في الجامعة إلى أكثر من ثلاثة آلاف شكل. أما الكاتب والصحفي والأستاذ الجامعي فعليه أن يعرف ما لا يقل عن خمسة آلاف شكل، معنى وكتابة. وللكتابة قواعد صارمة فلا يجوز أن ترسم الشكل كما يحلو لك، إنما خطوة خطوة: تبدأ من الأعلى.. ومن اليسار إلى اليمين.. ثم تهبط حتى تنتهي. وهذه الأبجدية اليابانية وفدت من الصين في القرن الثالث أو الرابع الميلادي، ويمتد تاريخها هناك إلى ما يزيد عن أربعة آلاف سنة. وهي تضم آلاف الأشكال والرموز المقتبسة أساساً من الطبيعة. فالشمس في البداية كانت ترسم دائرة لها أشعة، كما يرسمها الأطفال تماماً. لكن العبقرية الصينية كسرت حاجز المستحيل فربَّعت الدائرة، بغية السهولة والتيسير، وحولت رسم الشمس الدائري إلى مربع أو مستطيل، ثم مدت نقطة المركز في خط أفقي ليشكل قطر الشكل الرباعي. وهذا الشكل أو الرمز يدل على الشمس واليوم، مع اختلاف باللفظ، كما أن رمز القمر يدل على القمر والشهر، بلفظين مختلفين كذلك.

وهذه الأشكال الصينية تعطي المعنى والدلالة. والتزاماً باستقلال الشعب الياباني وتأكيداً على هويته القومية استعاروا الأشكال واعتمدوا لفظهم الوطني الخاص بهم إن جاءت الكلمة مفردة، ولكنهم حافظوا على الجذر الصيني، إن جاءت مركبة. أما الملحقات الصرفية فتكتب بالأحرف المبسطة المسماة هيراغانا، وهذه خاصة بالكلمات اليابانية، وهناك أبجدية موازية وخاصة بالكلمات الأجنبية الدخيلة تسمى كاتاكانا، وهذه الكلمات ليس لها رسم صيني، كانجي، كما يسمونه. وهاتان الأبجديتان من إبداع الكهنة قبل ما يزيد عن ألف سنة، ويقال إنهم توصلوا إلى ذلك من خلال تبسيط الأشكال الصينية، إلى أقصى حد ممكن.

وإذا كان كثير من الغربيين يرون في هذا التقسيم الأبجدي نزعة عنصرية، فإنك حين تبدأ بتعلم اللغة تكتشف أن هذا التمييز مفيد في معرفة الكلمات الأصلية وفرزها عن الكلمات الوافدة أو المستعارة من لغة أخرى، وهي كثيرة جداً، وهم لا يشعرون إزاءها بغضاضة أو نفور، أو هكذا يبدون أمامك في أقل تقدير.

والطريف في الأمر أن الرجال كانوا، في بداية الأمر، يتجنبون استعمال هذه الأبجدية المزدوجة تمسكاً بالتراث

وإيثاراً له، بينما راجت أبجدية الهيراغانا بين النساء على نطاق واسع، وبخاصة سيدات البلاط. ولعل أشهر سيدة في هذا المجال موراساكي (شيكيبو)* وكتابها: «حكاية غِنْجي»، ويعود تاريخها إلى ألف سنة مضت، وهي تعد أول رواية في العالم، وإن كان ابن المقفع قد سبقها بما يزيد عن مئتي سنة في «كليلة ودمنة». لكن هذه الأبجدية المبسطة سرعان ما حظيت باهتمام الرجال ودخلت في نسيج اللغة ومعاجمها، ولا تستقيم الكتابة والمعرفة إلا بها، قراءة وكتابة.

قيل لي إن في طوكيو وحدها نحو مئة معهد يعلم العربية، بعضها تابع لشركات وبعضها لمؤسسات الدولة، إضافة إلى أن بعضها مشاريع أهلية خاصة أو نقابية. لقد فاجأني الرقم حتى سألت أكثر من أستاذ، وكان بعضهم يؤكد أن العدد الصحيح قريب من ذلك، وهو دليل على مدى اهتمام اليابان بالعرب. وفي المقابل، هناك عشرات المعاهد التي تعلم اللغة اليابانية للأجانب برسوم رمزية. يتراوح عدد طلاب الفصل الواحد في هذه المعاهد بين ستة وسبعة ولهم غالباً معلمتان، أو بين ثمانية وعشرة ولهم ثلاثة معلمين، وفي الغالب من السيدات اللواتي تجاوزن الأربعين. وبهذه الطريقة يشرف كل معلم أو معلمة على طالبين أو ثلاثة في الحد الأقصى، لتكون

المحادثة مفيدة وفعالة في الدرس والحفظ وطلاقة اللسان. ويمكن أن تختصر الوقت وتضاعف من إمكانات الحفظ، حين تسعف ذاكرتك بأشرطة مسجلة، تواصل سماعها في البيت والقطار والمقهى والحديقة.. من غير أن تزعج أحداً أو يزعجك أحد. وهذه الطريقة أتاحت لي أن أستمع إلى بعض الجمل ما لا يقل عن مئة مرة، وأنا في القطار بين المسكن والجامعة، وهذا ما جعل أحد المعلمين يسألني: كيف تعلمت هذا اللفظ السليم؟ أجبته: الفضل لاختراعاتكم، من آلة التسجيل والأشرطة حتى قوس السماعة الذي يطوق أعلى الرأس ويحتضن الأذنين.

في لغتهم أربعة مستويات من الخطاب: مستوى الحوار بين الأصدقاء، مستوى الاحترام والمجاملة بين الطالب وأستاذه أو بين الصغير والكبير، مستوى الحديث الدبلوماسي وحديث التبجيل للإمبراطور، وهناك صيغة فعل لا تقال إلا للصغار والحيوان. وليس في هذه الصيغة الأخيرة من إهانة حسب مفاهيمنا. الحيوان والنبات عندهم جزء من الطبيعة الجديرة بالقداسة والاحترام.

لا وجود لحرف اللام في اليابانية، وسرعان ما يتحول على ألسنتهم إلى راء. وهم لذلك يخلطون أحياناً بين سيريا وشيلي في أميركا اللاتينية. ومن المداعبات الطريفة أن

أحدهم راح يلفظ اسمي: أري.. أري! ثم سألني: هل تعرف معنى أري باليابانية؟ أجبته: لا. قال ضاحكاً: معناه نملة! وسرعان ما انتفضت كبرياء العروبة، فصححت له لفظ الاسم بالعين أعمق الحروف العربية، كما وردت في معجم الخليل بن أحمد، واللام التي تملأ سقف الفم وتشديد الياء، وقلت له: «هذا من عجزكم عن النطق السليم». تورد وجه المسكين خجلاً، وتلقى من صديقته نظرة استنكار مصحوبة بعبارة لوم على ما ظننت. ثم حاول جاهداً أن يقلدني بلفظ الاسم، لكن محاولاته لم تنجح ما دفع صديقته إلى الضحك، وكأنها أمام لعبة عبثية بين أطفال كبار. وقال الفتى يائساً: هذا صعب، لكن الأطباء يؤكدون أن الأطفال قبل الثالثة، وربما حتى الرابعة، يمكنهم أن يتعلموا لفظ الحرفين بسهولة، ولكن المسألة بعد ذلك تتطلب جهداً شاقاً.

تمتاز اليابانية لدى سماعها بإيقاع شعري منغوم، ذي نبرة موسيقية موشاة بالعذوبة والجمال كهديل اليمام، بخاصة بين رياحين الجنس اللطيف. وهم مشهورون بلون من الشعر يسمونه هايكو، وقصيدة الهايكو تشكل أصغر قصيدة في العالم وأشدها كثافة وغموضاً:

يا لها من بركة عتيقة! Furu ike ya

ضفدع يقفز فيها Kawazu tobikomu

صوت الماء Mizu no oto

هذه الأبيات الثلاثة التي تشكل ١٧ مقطعاً (٥ ٧ – ٥) تعد من أشهر قصائد الهايكو في اليابان، وهي من شعر باشو، أعظم شعرائهم. ولقد قرأت لها ما يقارب ثلاثين ترجمة إنجليزية، ولم أشعر بأي منها تداني روعة الأصل. وحين يتوسع الأستاذ الياباني في شرحها، تصبح البركة العتيقة هي هذا الكون الأزلي القديم، ويغدو الضفدع هو الشاعر أو الإنسان الوافد إلى هذا الكون. وحياته في قياس الزمن لا تزيد عن قفزة ضفدع في الماء... ثم لا يبقى من حياة الإنسان إلا الصوت أو الصدى الخاطف والناتج من ارتطام جسم الضفدع بسطح الماء. إن مسحة من الأسى تلوح ندية رقيقة في ثنايا هذه القصيدة، ولا سيما الإحساس بالوقت الصيفي الهارب ودلالته الوجدانية المؤثرة. وتزداد القصيدة غموضاً وسحراً حين يقول لك الشارح إن ثمة التباساً بالدلالة بين «صوت الماء.. وماء الصوت»! ولما سمعت عبارة «ماء الصوت» شهقت، لكن الأستاذ واصل حديثه المدهش موضحاً أن الشاعر الصوفي في لحظة التجلي والإبداع لا يمكن الغوص إلى أعماقه الوجدانية واستجلاء المعنى الحقيقي، بكل ما يحيط به من دلالات ضبابية وإيحاءات رمزية وأطياف أثيرية كانت تخفق هائمة في فضاء الشاعر ساعة الإلهام.

في تقديري أن طبيعة اليابان الجبلية، بأنهارها القصيرة وجمالها الفطري العجيب الغامض، وكثرة الزلازل والأعاصير، والنزعة الصوفية لدى الشاعر الياباني، وهو في الغالب كاهن بوذي جوال، هذه العناصر كلها أوحت بابتكار هذا الشعر المكثف المدهش. إنه ابتهال آسر كإيماضة البرق في محراب الطبيعة أمنا الخالدة. كان الشاعر الصوفي، مقتدياً بالكهنة البوذيين الرواد، يمضي شهوراً وهو يطوف في أرجاء الطبيعة، سائحاً متأملاً، لكي يكتب قصيدة من تلك القصائد. ولا بد أن تضم كل قصيدة كلمة تشير إلى الفصل الذي كتبت فيه. وقفزة الضفدع في القصيدة المذكورة آنفاً هي التي تدل على أواخر الربيع أو مستهل الصيف.

وحين نطالع شعر الهايكو الياباني، لا يمكن أن نغفل عن ترجمته من ناحية وعن محاكاته مكتوباً بلغات أخرى. وإذا بدت الترجمة مقترنة بالخيانة في كثير من الأحيان، أو أن اللفظين التبسا في العديد من الأذهان بين المترجمTraduttore والخائن Traditere كما في اللغة الإيطالية، فإن قصائد الهايكو المكتوبة باللغة الإنجليزية تدعو إلى الشفقة والرثاء، إن لم نقل السخرية. لكن الترجمة غير التقليد العبثي والمحاكاة البائسة، فالتقليد يستبطن السخرية في بعض مراميه... أما

الترجمة فلا بد منها وإلا انتفى التواصل بين الشعوب. ربما لا تستطيع الترجمة احتضان روح النسيج الأصلي وإن حفلت بلمحات شعرية، لكنها ليست أكثر من مقاربة لمعاني الهايكو، وهو شعر خاص باليابان، طبيعة وإبداعاً وتاريخاً وطقوساً اجتماعية، تحديداً وحصراً.

مواسم وتقاليد

الشاي الأخضر مشروبهم التقليدي الشهي والمفيد، وتعود أهميته في اليابان إلى ما يزيد عن ١٢٠٠ سنة حيث كان في البداية شراب الكهنة البوذيين في خلواتهم التأملية، بخاصة من أتباع صوفية الزن. وكان يعتبر علاجاً رفيع القيمة. ومع اتباع وسائل التقنية الحديثة في جني المحصول، صار الشاي أهم مشروب شعبي في تلك البلاد وغيرها. ومنافع الشاي الصحية معروفة على نطاق واسع، ليس في اليابان وحدها وإنما في العالم أجمع. ويروى أن أوراق الشاي الخضراء أو الحمراء التي تنمو في منطقة أوجي، على مقربة من كيوتو، لعبت دوراً هاماً في تكريس ثقافة الشاي التقليدية في اليابان، وصار لها طقوسها وبيوتها ذات الطراز المعماري المتميز، ومدارس خاصة بطريقة الإعداد والاحتفال بها. إن ثقافة

الشاي اليابانية تركت أثرها على أسلوب العمارة والعادات والأزياء والمطبخ والخزف والشراب والرسم والأدب.

وفي «كتاب الشاي» تأليف أوكاكورا (كازوكو)* وطبعته الأولى ترجع إلى ١٩٠٦- يرتقي المؤلف بأسلوبه المرهف وحديثه الوجداني عن الشاي إلى عذوبة الشعر وصفاء الوجد الصوفي، بدءاً من أوراق هذه النبتة المباركة ومذاقها الشهي إلى طريقة إعدادها، وحتى الحديث عن بيوت الشاي الظليلة وتصميمها الداخلي البسيط والبعيد عن كل تنسيق غربي ورتابة مضجرة. ويقول عن منقوع الشاي الذي انتشر في شتى بقاع الدنيا واكتسب شهرة عالمية: «إنه شراب الفن والحياة، بقدر ما هو طريقة حياة». ويشيد كاتب المقدمة بمنافع الشاي بأنها تشيع الانسجام والاحترام في المحيط الاجتماعي، وتمنح الفرد السكينة والصفاء. ويكفي هنا أن أشير إلى أهمية الكتاب في الواقعة التالية: يقول كاتب المقدمة إن الاحتلال الأميركي فرض عليهم الدستور، كما حاول أن يفرض عليهم نمط الحياة الغربية. لكن ضابطاً أميركياً ألقى محاضرة في جامعة واسيدا، في طوكيو، ومما قاله: ليس عليكم أن تتبنوا دساتير الغرب الديمقراطية كما هي، ولكن أن تأخذوا بعين الاعتبار مبادئكم المثالية كما صاغها تراثكم في التقاليد

العريقة المبينة في «كتاب الشاي».

ومنذ اللقاء الأول في أية جلسة يابانية يكون مفتاح الحديث سؤال عن زمرة دمك وطالعك في الأبراج، مع العلم أن أبراجهم الصينية مرتبطة بالسنين، لا بالشهور كأبراجنا. وقد بدأ القرن الجديد ٢٠٠١ بسنة الأفعى*، ومن أمثالهم: «قدم الأفعى» ومعناه: شيء أو عمل غير ضروري. وقد فوجئت بانتقالي من برج الحمل إلى برج الجرذ نيزومي*. ولهذه الأبراج أسطورة صينية طريفة، فقد أراد إمبراطور الزمرد[٢] اتباع طريقة لقياس الوقت فأجرى مسابقة بين ١٢ حيواناً لعبور النهر سباحة، فكان الثور في المقدمة، ولكن الجرذ الماكر كان راكباً على ظهره وقبيل خروجه من الماء إلى اليابسة قفز الجرذ عنه وسبقه إلى البر فكان الأول وجاء الثور في المرتبة الثانية. أما الخنزير الخامل فقد جاء في المرتبة الأخيرة، بينما كان ترتيب بقية المتسابقين كما يلي: النمر، الأرنب، التنين، الأفعى، الحصان، الحمل، القرد، الديك، الكلب. وإذا كان التنين يحتل مكانة مميزة في الأساطير الصينية، فإن للحصان ميزة خاصة في اليابان إذ يطلقون عليه اسم «الحصان الناري» كل ستين سنة، أي في كل خمس دورات فلكية. واليابانيون لا ينظرون بارتياح إلى

(٢) Jade: حجر كريم يترجم إلى (اليشب)، لكن أستاذاً صينياً في معهد اللغة العربية في بكين قال لي إنه (الزمرد).

تلك السنة، وهم يتجنبون الزواج كما تتجنب الأمهات الحمل خوفاً على أطفالهن من ويلات تلك السنة المشؤومة.

ورغم أنهم بلغوا المراتب العليا في العلوم والصناعة والتكنولوجيا، إلا أن التقاليد الاجتماعية المتوارثة ما زالت صارمة. والزائر الغريب لا يملك إلا أن يقف ذاهلاً أمام وقائع وقصص لا تحدث إلا في اليابان، خصوصاً في حرصهم الشديد على تحمل المسؤولية إلى حد التضحية. ومن هذه القصص أن لديهم ٤٦ مفاعلاً ذرياً لتوليد الكهرباء وسائر الخدمات السلمية. وربما ازداد العدد الآن، لكن قصتنا لا علاقة لها بالرقم. مفاعل في الشمال انفجر خزان التبريد فيه وانتشر الصوديوم وأصاب الإشعاع بعض العاملين، وجرت معالجة ذلك بكل ما لديهم من خبرة في هذا المجال. لكن المهندس المشرف على ذلك المفاعل، أعلن أنه يتحمل المسؤولية كاملة وألقى بنفسه من شرفة مرتفعة في أحد الفنادق، كما أوردت الصحافة. وربما كان مثل هذا الانتحار أقرب ما يكون للدفاع عن الشرف، وإن لم يكن بالطريقة التقليدية وطقوسها الصارمة.

- الاحتفال برأس السنة الجديدة من أهم المهرجانات الشعبية والرسمية. وفي معظم الشركات، يحصل الآباء على إجازات مدفوعة الأجر من ٢٨ ديسمبر حتى ٥ يناير، وتنتهي

الأمهات من إعداد الطعام في آخر يوم من السنة لتشارك في الاحتفال مع أسرتها حرة من أعباء البيت. وهم يضعون على جانبي الباب الخارجي أصيصين يحتوي كل منهما على ثلاث قطع من أعواد الخيزران مدببة الرؤوس، وسط باقة من أغصان الصنوبر الخضراء، ملفوفة بعيدان رفيعة من القش تشبه سيقان القمح.. وذلك استبشاراً بالسنة القادمة، وأملاً بوفرة الغلال وازدهار مواسم الخير.

أمواج البشر الزاحفة نحو المعابد والمزارات في طوكيو عشية رأس السنة، تدعوك إلى التعجب والدهشة من شدة الزحام، بخاصة في القطارات. عدد من الأصدقاء آثروا أن نشارك بالاحتفال في مزار ميجي، إمبراطور الانفتاح والإصلاح والإمبراطورة شوكن، على مقربة من محطة هاراجيكو. وكانت رحلة أشبه ما تكون بالمغامرة، لكنها ليلة نادرة من ليالي العمر، فرحاً ومتعة وصخباً.. وقد استمرت السهرة حتى الصباح، لكن أعيننا المثقلة بالنعاس لم تكتحل برؤية جبل فوجي، مع إشراقة الشمس، كما يفعل المغامرون السعداء، خصوصاً من عشاق الرياضة ومتسلقي الجبال.

- عيد الحب تاناباتا عندهم في اليوم السابع من الشهر السابع (تموز/ يوليو). وتقول الأسطورة إن أميرة النسيج

أوريهيمي وقعت في حب راعي القطيع هيكوبوشي، كما شغف الفتى حباً بها. وقد شغلهما العشق عن العمل فغضب والد الأميرة وحكم عليهما بالانفصال، ورفعا إلى السماء ليحول بينهما نهر المجرة وتستكمل الأسطورة طقوسها. لذلك، لا يلتقيان إلا مرة واحدة في السنة هي ليلة ٧/٧. وفي تلك الليلة يمد الغراب جناحيه كالجسر عبر المجرة ليتيح لهما اللقاء. وهما يمثلان في الفلك العربي النسر الواقع والنسر الطائر. ويحتفل الشبان والفتيات بهذا العيد، فيتوجهون إلى الحدائق والضواحي حيث يطلقون الأسهم النارية في الجو لكي يدلوا العاشقين على طريق العودة إلى الأرض، أملاً بأن ينعما بيوم جديد من حبهما القديم، بعد معاناة سنة من الفراق والحرمان. ويقال إن الاحتفال بهذا العيد بدأ في القصر الإمبراطوري سنة ٧٥٥، ثم انتشر في طول البلاد وعرضها. وتحتفي الصبايا بهذا العيد أكثر من الشباب، وكل فتاة تتوسل إلى أميرة النسيج أن تجعلها ماهرة في عملها مثلها عسى أن تحظى بعريس مخلص كراعي القطيع. والاعتقاد الشعبي يشير إلى أن الأمنية لا بد أن تتحقق خلال ثلاث سنوات.

ويبدو من هذه الأسطورة أن للأرقام دلالاتها الرمزية أيضاً، فالرقم ٧ مبارك وله مكانة خاصة كأيام الأسبوع، كما أن الآلهة انتدبوا روحين من الجيل السابع لإعمار الأرض بدءاً

من اليابان، والفضائل سبع كذلك، وهناك العديد من الرموز الأخرى، وحتى فيلم الساموراي السبعة من أشهر الأعمال السينمائية. لكنهم ينفرون من الرقم ٤ شي لأن كلمة الموت تحمل اللفظ ذاته، مع اختلاف الشكل طبعاً. لذلك لا يمكن أن تجد هذا الرقم في أي من غرف المشافي وعنابرها. كما أن الرقم ٩ غير مستحب، لأن لفظه مشابه للألم المبرح في ساعة النزع الأخير.

ـ الاحتفال بعيد الأطفال، ذكوراً وإناثاً، يقتصر على من بلغوا (٧ – ٥ – ٣) سنوات من العمر، وهو في ١٥ نوفمبر (تشرين الأول)، وغالباً ما يقدم أو يؤخر يوماً أو يومين حتى يصادف العطلة الأسبوعية ويشارك فيه الآباء باقي الأسرة، لأنه ليس عطلة رسمية. وحين تسمعهم يرددون هذه الأرقام الثلاثة: (شِتْشِيـ غُو سان) تحس بإيقاع أغنية من أغاني الأطفال الجميلة. وفي طقوس الشنتو، منذ أكثر من ١٢٠٠ سنة، أن على الأطفال الذين بلغوا الثالثة أن يزوروا المعبد لأول مرة بصحبة ذويهم، وهم في أجمل الملابس. وهذا الاحتفال يشمل الجنسين معاً. ويستمر الاحتفال بالخامسة للأولاد، وبالسابعة للبنات، وتراهم أسراباً في أبهى الأزياء التقليدية وألوانها الزاهية أمام مزار ميجي في طوكيو. وهذا يؤكد أن الأطفال هم أحب الأميرات والأمراء الحقيقيين في اليابان.

وأروع العادات التي يتميز بها أولئك الأطفال أن تراهم خلال العطلة الأسبوعية يمضون ساعات واقفين في المكتبات، متنقلين بين رفوف الكتب والمجلات، مستغرقين في القراءة والتصفح، وهم يأخذون وقتهم كاملاً في التأمل والاختيار. ولقد حاولت أكثر من مرة أن أجاريهم فلم أستطع... لقد زرت بلاداً عديدة، ولم أشاهد مثيلاً لمكانة الطفل الياباني إلا في أرمينيا، خلال العهد السوفييتي، ولا أدري إن كان ذلك الوضع لا يزال قائماً حتى اليوم، أم أن رياح العولمة جرفته مع كثير من الأشياء والقيم الجميلة في حياتنا.

في الثالث من مارس (آذار) يحتفلون بعيد الدمى، وهو خاص بالفتيات الصغيرات، وترى مجموعة من مختلف الدمى بثيابها الزاهية الحمراء مصفوفة على رف بارز في صدر البيت. كان الاحتفال في الماضي يرمز إلى العائلة الإمبراطورية وأعضاء البلاط، ثم صار عيداً شعبياً جميلاً. ولا شك أن العامل التجاري كان له أثره في أهمية العيد ورواج الدمى، إرضاء للصغيرات. ويقولون إن الاحتفال بهذا اليوم قد يختلف من منطقة إلى أخرى. وفي بعض المناطق يحملون تلك الدمى في مساء الثالث من مارس ويذهبون إلى ضفة النهر أو شاطئ البحر ويطلقونها في الماء لترحل بعيداً مع التيار، راجين أن تبعد المصائب عن صغارهم إلى غير رجعة.

- أما العيد الخاص بالفتيان الصغار، في مستهل الصبا، فهو في الخامس من مايو (أيار)، ويمتاز هذا العيد بأعلام وشرائط ملونة تمثل سمك الشبوط رمز القوة والنشاط، تعلق في الشوارع وعلى واجهات المحلات التجارية ومفارق الطرق، كما يضعون في بيوتهم دمى تمثل الساموراي. والشبوط يسبح عكس التيار كما أنه يقفز فوق الماء بسرعة خاطفة. وتقول الحكاية الصينية إن الشبوط ينطلق في النهر صعداً، وهو يحاول أن يقفز فوق بوابة التنين لكي يتحول إلى تنين.

يبدأ الأسبوع الذهبي بعيد ميلاد الإمبراطور الراحل شُووَا في ٢٩ أبريل (نيسان). وتشير الصحافة إلى أنهم غيروه في السنة السادسة من القرن الجديد، واستعاضوا عنه بعيد الخضرة والنماء الذي كانوا يحتفلون به في الرابع من مايو (أيار). ويمتد هذا الأسبوع حتى ٥ مايو، وتكون أيام الإجازة فيه متواصلة أو متقطعة وفق تاريخ العطلة الأسبوعية. ولقد أمضيت إجازتي في مدينة فوكوكا في جزيرة كيوشو، وشاهدت فيها مواكب الاحتفالات الراقصة في شوارعها. وقد اختار الأصدقاء أن أنزل في هذه المدينة لأكون على مقربة من ناغاساكي، ضحية القنبلة الذرية بعد هيروشيما. وقد زرتها وأمضيت يوماً فيها، ولم أتردد بالصعود إلى برجها التذكاري، مشاركة لهم بذلك. وكنت أرغب بزيارة مينائها، خصوصاً أنه

البوابة الأولى والوحيدة التي أطل منها الغرب خلال حقبة العزلة والانغلاق، لكن رفيقة الزيارة لم تجد أهمية في ذلك.

وهناك عيد الأسلاف أو - بون، وفيه تعود أرواح الأجداد، وفق التراث البوذي، إلى مسقط رأسها مرة في السنة خلال منتصف أغسطس (آب). وهم يستقبلونهم في الليلة الأولى (٨/١٣) بإشعال كومة صغيرة من القنب أمام الباب حتى لا يضلوا الطريق، ويودعونهم في اليوم الثالث بالطريقة ذاتها. وقد يطلقون مصابيح في الأنهار أو عبر شاطئ البحر، وذلك في صناديق خاصة مجهزة للعوم حتى تظل طافية على الماء. إن لكل منطقة طريقتها في إحياء هذا المهرجان، وقد يكون في يوليو (تموز). وخلال هذه الأيام الثلاثة يعود الأبناء إلى بيوت آبائهم ليشاركوا في طقوس العيد، وهو المناسبة السنوية السعيدة التي يلتم فيها شمل العائلة ويشارك الأحياء جميعاً باستقبال أرواح الراحلين. وغالباً ما تعطل الشركات احتراماً ومراعاة للعاملين فيها. وينشغل الكهنة البوذيون خلال هذا الموسم بزيارة العديد من البيوت لقراءة شيء من تعاليم بوذا. أما أتباع الشنتو، فغالباً ما يعقدون حلقات واسعة للرقص والغناء حول مزارات العظماء، وأبرز ما في مشهد الاحتفال طبل كبير على منصة عالية، إلى جانب آلات تقليدية أخرى.

ونرى أن للملح قيمة رمزية لا تخلو من قداسة في أساطيرهم

وعاداتهم، كما هي الحال في تقاليدنا. مصارعو السومو يطهرون الحلبة برشها بالملح لدى دخولهم فيها. والمرأة التي تضطر لحضور جنازة قريب أو صديق لا تدخل بيتها إلا بعد أن تخرج صرة ملح صغيرة من حقيبتها وترش منه بضع ذرات، دفعاً للشر. وبالمصادفة الغريبة، والمفيدة في آن معاً، أني كنت على موعد مع الصديق الرسام، وحين اقتربت من بيته لمحت زوجته قادمة فانتظرت حتى اقتربت من الباب، فتحته وأخذت ترش الملح على العتبة، طالبة مني الدخول قبلها.. وحين ترددت احتراماً، أخبرتني أنها كانت في جنازة صديقة لها، ولا بد لي من مواساتها ولو بتلبية طلبها، وخيل إلي أن شبح الغراب يحوم فوقها، وكان لا بد لي من المغامرة والدخول لمواجهة خطر الشبح المتربص بشجاعة عربية متوارثة من أيام عنترة. وكان الصديق بانتظاري جالساً أمام التلفزيون يشاهد برنامجه المفضل، بعيداً عن حسرة السيدة وحزنها.

إن الطبيعة البركانية زودت اليابان بآلاف الينابيع والغدران والجداول الحارة، ومن عادتهم أن يستحموا فيها عراة، وبشكل مختلط أحياناً. وفي بعض الأحيان يجري الاستحمام في حوضين منفصلين بجدران إسمنتية، وقد يكون حوضاً واحداً متصلاً، لا يفصل بين الجنسين في هذه الحال إلا ستارة نباتية تحول دون تلصص المتطفلين وتماديهم. وهذا

سلوك غير وارد، ولعله لا يخطر على بال أحد منهم ولا مجال للحديث فيه. وربما كانت السباحة الجماعية في تلك الأحواض من أصعب ما يواجه الغريب، ولا سيما إن كان مثقلاً بتاريخ طويل من المحرمات، كما هي الحال لدى كثير من المجتمعات.

وهذه الأحواض والينابيع الحارة تحمل اسماً جميلاً: أونسِن onsen، وهي فعلاً مفعمة بالأنس والانتعاش وتجديد خلايا الجسم والعقل ومكنونات المشاعر. ولعل أطرف ما مر معنا في تلك الحمامات الطبيعية المنتشرة في الهواء الطلق، أننا دخلنا الماء الجاري في أحد المنتجعات قبيل الغروب بنحو ساعة. ولما قاربت الشمس ميقات سفرها وراء الأفق، قال لنا الأستاذ: هيا، شباب.. يجب أن نرجع إلى الفندق في الحال. كنا مستمتعين بسخونة الماء، فانطلق أكثر من صوت لا يخلو من رجاء: لماذا الاستعجال، يا أستاذ؟ فأجاب بجدية لا تقبل التردد ولا تحتمل التأخر: «إذا لم نغادر خلال دقائق.. فإن قطيعاً من القردة سيهاجمنا ويطردنا، لأنهم أصحاب الجدول ورواده ليلاً!

أطباق المائدة

إن إخلاص الياباني لعمله، في أي موقع كان، والتزامه الآلي به شبيه بإخلاص الساموراي لراعيه ومعلمه وقائده

والتزامه بأهداف شرفه المهني. هذا الإنسان الذي يتعب كثيراً في عمله يجد أن متعته الأولى تكمن في الطعام والشراب. ولعل الراحة التي يشعر بها في هذا الوقت القصير هي التي توحي له بالمتعة والاسترخاء، بعد عناء فكري أو بدني مرهق. قد يتناول الوجبة معك عشرات المرات، وحين تسأله رأيه فيها يجيبك بإعجاب طفولي أويشي «لذيذة»oishi ! وربما كانت شرائح السمك النيئ سوشي أو ساشيمي من أشهى مأكولاتهم، وكذلك نوريNori وهي أوراق خضراء مصنعة من طحالب البحر ومحشوة بالأرز وقطع صغيرة من السمك أو اللحم مع الخضار. ولما رأيتها أول مرة، حسبتها مما نسميه اليبرق في بلاد الشام، وهو من أوراق دوالي العنب الملفوفة على حشوتها من الأرز أو البرغل المتبل باللحم المفروم.

متعة الياباني الثانية تأتي في الراحة والاستحمام والنظافة، بعد عمل يومي مجهد لا مجال فيه للتهرب أو التهاون. ويبدو أن لهم طقوسهم اليومية في ذلك. وإذا لم يكن في المسكن حمام بسبب ضيق المساحة، فهناك حمام عام في الحي يحل المشكلة. لكن الصحافة تشير إلى تناقص أعداد هذه الحمامات العامة بفعل التوسع العمراني وانتشار طراز الأبراج في الأبنية الحديثة. وللاستحمام طقوسه الاجتماعية ولا يقتصر على نظافة الجسم وحسب، إنما له أكثر من هدف:

صحي وديني وعلاجي، إضافة إلى النظافة. لذلك، لا يدخلون أحواض الماء الحار والاسترخاء فيها إلا بعد تنظيف أجسامهم خارجها، سواء في البيت أو الحمام العام أو في المنتجعات والفنادق. أما المياه الجارية من الينابيع الحارة فيمكن دخولها والسباحة فيها مباشرة. ولكل واحد من هذه الحمامات اسمه المستقل: حمام البيت يسمى أوفرو Ofuro بإضافة (أو) الاحترام؛ وحمام السوق يسمى سِنتو Sento؛ وحمام الينابيع الحارة يسمى أونسِن onsen، وسرعان ما رسخت هذه الكلمة في ذاكرتي لأنها مرتبطة بالأنس والمؤانسة في لغتنا.

ومن الوجبات الشعبية المعروفة على نطاق واسع، بخاصة في العشاء، طبق الرامن وهو في المائدة الصينية ليامن، ذلك أن آثار الثقافة الصينية حاضرة بوفرة في مختلف مجالات الحياة، حتى في المطبخ الياباني. وهو طبق من معجنات القمح والبيض وشرائح اللحم، تغلى في مرق لبني كثيف وتعد أمامك خلال دقائق، وهم يتناولونه ساخناً إلى درجة أنهم يرتشفونه بصوت مسموع، خلافاً لعادتهم في تناول الأطباق الأخرى. وكان يحلو لي أن أطلق عليه «معكرونة بالكشك أو اللبن». وهناك طبق السوبا، وهو أيضاً ألياف من معجنات الحنطة السوداء، لكنهم يتناولونه بارداً ويرشون فوقه قليلاً

من فتات الأعشاب البحرية. نوري، إضافة إلى قطع مفرومة من البقول والتوابل الأخرى. ولم أستسغ هذا النوع البارد من المعجنات، ولم أتذوقه إلا مرة واحدة. كنت يومئذ برفقة طالب في الدراسات العليا أراد أن يعرفني مشكوراً على حي كانَدا الحافل بالعديد من المكتبات، بخاصة الكتب القديمة والمستعملة منها وهي بأسعار رمزية. ولقد ترددت كثيراً على تلك المخازن، وأغنتني كنوزها عن جميع أطباق السوبا.

وهناك فطيرة من عجين طري يبسط أمامك على صاج حار يدهن بالزيت ويرش بخليط مخفوق من قطع الملفوف والرويبيان والحبار أو اللحم، وخلال دقيقتين أو ثلاث تكون الفطيرة جاهزة أمامك، ولا تنس أن تغمسها بمرق الصويا وترشها بنثار من أعشاب البحر الخضراء. وثمة نوع شهي من الزلابية اسمه غيوزا Gyoza وهو أيضاً من لحم مفروم وخضار ناعمة ملفوفة برقائق من عجين القمح هلالية الشكل، ولعل هذا النوع من الزلابية ألذ ما تناولت من أطباق يابانية، إلى جانب الساشيمي.

ومن الأطباق المشهورة أيضاً شابوشابو وهو معد من رقائق اللحم البقري التي تجهزها بنفسك، وأمامك في وسط الطاولة وعاء فيه ماء يغلي فوق سخان كهربائي أو غازي،

وما عليك إلا أن تحمل الرقاقة بالعودين الطويلين وتغطها بماء الغليان لثانيتين أو ثلاث ثم تتناولها بشهية، بعد أن تغمسها بما يناسبها من مرق التوابل الشهية، خصوصاً أن لكل نوع من اللحوم والأسماك مرقاً أو صلصة خاصة تزيد الطعم لذة. لذلك، إن كنت من هواة فن الطهي، فعليك أن تزود خزانة المطبخ برف خاص حافل بأنواع التوابل الجافة أو السوائل المخزونة في زجاجات صغيرة.

ومن ألوان الشواء مطاعم مزدحمة ويمكن للمستعجلين أن يتناولوها وقوفاً في الشارع، ويبدو لك أن معظم هؤلاء من الشباب أو العابرين، وهي من أكباد الطيور التي تشوى أمامك وتقدم مشكوكة بأعواد الخيزران. وهذه بُلغة خفيفة تكفي لتذوق عابر أو رغبة في تجربة مختلفة. لكن أطباق المطاعم المتحركة أو الدوَّارة ماوارو Mawaru، فهي من أشهى ألوان الطعام الياباني وأكثره تنوعاً وشهرة. وكان لي عشاء شبه أسبوعي في هذا النوع من المطاعم، مع بعض الأصدقاء أحياناً، وغالباً ما كنت وحدي. تدخل المطعم الصغير، فيواجهك طاهيان أو ثلاثة داخل مطبخ دائري حاجزه بارتفاع الصدر، وقد صفت الكراسي الصغيرة حول الحاجز الدائري، وفوق الحاجز رف يدور محملاً بألوان من الأطباق الصغيرة المتجددة، فلا

يكاد يفرغ لون من ألوان الطعام حتى يبادر الطاهي لوضع طبق جديد كان قد أعده على عجل، وكأن أيدي الطهاة آلات كهربائية تتحرك بسرعة خاطفة. يتراوح عدد الأطباق في هذه المطاعم بين عشرين وثلاثين لوناً، تشمل أنواعاً من اللحم والأسماك والخضار، منه النيئ، المدخن، المقلي أو المسلوق، مغموراً بالماء أو الزيت، أو ناضجاً على البخار. حجم الطبق لا يزيد عن لقمتين أو ثلاث، وكنت أكتفي بعشرة أطباق أو اثني عشر، أحياناً.

أشهى هذه الأطباق تناولتها بصحبة الأستاذ نوتوهارا في عشاء خريفي جميل في كوبيه. وهذه المدينة جديرة بوقفة مستقلة، بخاصة بعد كارثة الزلزال. في تلك السهرة تناولت من ٢٠ إلى ٢٢ طبقاً، في حين أخذ الصديق ٢٥ أو ٢٦، كما قال. لذة التوابل المرافقة لكل لون من الطعام تجعل الذوق والعين أحياناً عاجزين عن معرفة الطبق وتحديد نوع الخضار أو السمك أو البقول، خصوصاً أنك تأخذه لأول مرة. ولكن فراخ الباذنجان الصغيرة وشرائح السلمون المدخن، بلونه الوردي، وبراعم الخيزران المسلوقة، وبعض الجذور والخضار المقلية الأخرى كانت أشهى ما تذوقت في تلك الوجبة المتنوعة. وقد ذكر لي الأستاذ العزيز أن فرعاً مماثلاً لمطعم كوبيه قد افتتح

في طوكيو، ولم يسمح لي الوقت باكتشاف موقعه.

يسمون هذه الخضار المقلية، مغلفة بطبقة من دقيق القمح أو الأرز، تمبورا Tempura. ويقال إنها مقتبسة عن البرتغال، وغالباً ما تغمس بمرق الصويا عند تناولها. وربما كان طبق الأرز من أشهى ألوان المائدة اليابانية، وهو يطهى بلا دسم ويتناولونه بلا مرق، ويمكنك أن تغرف بطرف العودين كتلة أكبر من لقمة الملعقة المتوسطة، خصوصاً أنهم لا يزيلون منه المادة النشوية اللزجة فيحافظ على تماسكه في كتلة طرية. وللأرز الياباني مذاق عطري خاص جداً، لم أعرف له مثيلاً في جميع البلدان التي زرتها، ولا أنسى أني كنت في طفولتي وصباي أنفر من أكل الأرز، ولا أتناوله إلا مع الحليب المحلى بالسكَّر. ويبدو أن الشعب الياباني قد اعتاد على هذا الطبق حتى الإدمان. وعلى ما أذكر في سنة ١٩٩٥ لم يكن موسم الأرز وافراً بما يكفي، فاضطرت الحكومة للاستيراد، وكان الناس يرفضون ذلك النوع المستورد إلى درجة أن محطة التلفزة الرسمية قدمت رئيس الوزراء وهو يزور إحدى المؤسسات الاستهلاكية الضخمة، ويتناول لقيمات من الأرز بنفسه أمام الكاميرا، ليقنع المستهلكين أن النوع المستورد جيد، وربما ليؤكد لشعبه أن الأطباق التي يتناولها في بيته من ذلك النوع ذاته.

الأسماك بأنواعها وجبة أساسية على كل مائدة يابانية. وأساطيل الصيد منتشرة من المحيط الهادئ حتى سواحل المغرب في المحيط الأطلسي، مروراً بالمحيط الهندي. وقد شجعني بعض الأصدقاء على زيارة سوق السمك في طوكيو، وقيل لي إنه أضخم سوق من نوعه في العالم، لكني اعتذرت لأني لا أحب الرائحة من جهة، كما أني لا أحب أن أصحو باكراً قبل السابعة. وزاد أحدهم في إغرائي بأهمية الزيارة، موضحاً أن سوق الخضار والفواكه إلى جانبه، ويمكن أن تكون الزيارة بعد التاسعة أو العاشرة لأن الوقت قبل ذلك مخصص لباعة الجملة. وفي ذلك الحين، لم أكن من هواة ذكر الطعام في كتابتي، ولم أكن مهتماً بثقافة الطعام قبل أن أكلف بترجمة كتاب خاص بالأعشاب الغذائية والطبية والعطرية للمجمع الثقافي في أبوظبي، ولم ينشر الكتاب على ما أذكر، لأن المؤلفة لم توافق.

أطباق الأسماك متوافرة في كل مطعم وفي كل بيت، وهو طبق أساسي إلى جانب الأرز، وكأس الشاي الأخضر. وللحوت مطاعم صغيرة خاصة، كما أن للسرطان بحجمه الكبير مطاعمه. لكني لم أستسغ هذا النوع البحري المشؤوم، ولم أدخله إلا مرة واحدة وخرجت منه آسفاً على ضياع الوقت. وربما كانت التسلية الوحيدة في ذلك المطعم أن الجميلة التي

شجعتني على ارتياده كانت تتناول وجبتها بشهية مفرطة، وهي تستعمل أصابعها العشر، على غير العادة، بينما اكتفيت بتقليب ما احتواه طبقي بعودي الأكل لأستعيد ذكريات ميلي للتشريح ودراسة الطب، قبل أن أنتهي إلى قسم اللغة الإنجليزية.

وهناك نوع سام من الأسماك اسمه فوغو Fugu، ولا يسمح بإعداد هذا النوع إلا لخبراء مختصين وموثوقين. وفي طريقي من السكن إلى محطة كيتشيجوجي، كنت أمر بمطعم مختص بهذا النوع. كنت أتأمل مدى إقبال الناس عليه، لكني آثرت السلامة ولم أحاول التجربة. أما سلسلة المطاعم الأميركية فهي منتشرة بكثرة، وكذلك الهندية والتركية ثم الإيرانية بنسبة أقل.. ولم أصادف مطعماً عربياً. ويمكنك أن تأخذ للبيت ما شئت من ألوان الطعام الجاهزة، ولا سيما اليابانية منها، وغالباً ما تكون من الأسماك. وربما كان الشعب الياباني، وأبناء جنوب شرق آسيا بوجه عام، من أكثر الشعوب اعتماداً على الغذاء البحري.

الفرد والمجتمع

كثير من المعابد اليابانية تراها مزدحمة بالزوار، ومعظمهم يمارسون الطقوس ذاتها، وإن لم يكونوا من أتباع هذا الدين أو ذاك. إنه طقس اجتماعي تقليدي أنيس، ولعلي أستثني هنا

بعض المتقدمين في العمر بخاصة من السيدات المتمسكات بالأصول المتوارثة، ويمكنك أن تلاحظ ذلك من طريقة الانحناءة التي تقارب الركوع أثناء تبادل التحايا بينهن. أما الجيل الشاب فلا تشعر بأنه شديد التمسك باتباع هذه الطقوس ومزاولتها، إلا في المهرجانات الموسمية واحتفالات الأعياد. هواجس الشباب تدور حول الدراسة وتأمين العمل والعيش الكريم.. وربما السفر.

هناك أديان متعددة، لكن أبرزها البوذية والشنتو (طريق الآلهة). وأرواح الأموات من معتنقي الشنتو تأوي إلى مدافنها وتصبح مقدسة كتقديسهم الطبيعة، لذلك يبنون لعظمائهم أضرحة وصروحاً أو مزارات شامخة يسمونها جنجا Jinja، وغالباً ما ترد ترجمتها «معبد» أو «مزار»، وهي تختلف عن المعابد البوذية تيرا Tera وهذه لا يلفظونها إلا مسبوقة بمقطع الإجلال (أُو) فيسمونها Otera.

وإذا تحدثنا بلغة المجاز، فإن الدين الوحيد السائد في اليابان هو دين (العمل). فأنت لا تعرف إن كان صديقك أو صديقتك من أتباع البوذية أو الشنتو، المسيحية أو الإسلام، أو أنه غير ملتزم بأي اعتقاد غيبي. أعداد غفيرة منهم يزورون المعابد البوذية والشنتوية للتنزه والاستجمام والتبرك والتقاط الصور التذكارية، وكثير منهم للتسلية، وقد يمارسون

الطقوس ذاتها دون أية غضاضة أو حرج أو مجاملة. وحين أشرت إلى مسألة العمل وأهميته في محاضرة في جامعة دمشق، عاتبتني إحدى اليابانيات فقد ظنت أني أتهم شعبها بأنه بلا دين. ومن ذلك الالتباس، تأكدت أن لكل لغة أسرارها ومفاهيمها وطرائق التعبير فيها، ومن العسير إتقان اللغة إلا بفضل حليب الأم، أعني منذ الطفولة والصبا الباكر.

ربما كانت أجمل المعابد البوذية منتشرة في العاصمة القديمة كيوتو، أو في المدينة الجبلية الساحرة نِكُو، كما مر سابقاً في حديثي عن المدينتين. يكفي في المعبد البوذي أن تقف لدى مصب الماء لتأخذ رشفة أو تتطهر، ثم تتقدم إلى واجهة المعبد فتشد الحبل الليفي الغليظ لقرع الجرس، ويمكن أن تودع أمنيتك بعبارة موجزة في وريقة صغيرة تلفها وتعلقها بين المئات من أمنيات الآخرين في الركن المخصص لذلك، قبل الدخول إلى الحجرة التي تحتضن تمثال بوذا.

أما في مزار من مزارات الشنتو التي تحتضن أرواح الجدود وتحول بعضهم إلى آلهة، فيكفي أن تشهد حفلاً غنائياً راقصاً، حيث تعقد في مواسم معينة حلقات موسيقية راقصة، وضارب الإيقاع يجلس في مكان مرتفع من الفسحة التي يقام عليها الاحتفال. وفي المزارات الكبيرة تشارك في الحفل الراقص

فرقة موسيقية صغيرة بآلاتها التقليدية، ويتحول الملتقى إلى مهرجان. ولأنني من عشاق الدبكة السورية، فقد حاولت أن أشاركهم الاحتفال الراقص بتشجيع من صديقة جنوبية أسعفتني بخوض المغامرة، لكني لم أفلح في الانسجام مع الإيقاع وتموجات الجسد، فخرجت من الحلقة بعد دقائق واكتفيت بالفرجة، وقد عزوت خيبتي إلى صلابة جسمي الذي لم يتناول كفايته من الأسماك في نمط غذائه، لأن حركة أجسادهم اللدنة كانت أشبه ما تكون بحركة الأسماك في عباب المحيط.

ورغم أنهم بلغوا أعلى المراتب في العلوم والصناعة والتكنولوجيا، إلا أن التقاليد الاجتماعية المتوارثة ما زالت صارمة. ولعل من أبرز أمارات عبقريتهم ومزاياها أنهم جمعوا بين الأصالة والحداثة في أبهى صورهما، دون تناقض أو حرج أو ادعاء. إن تواضعهم الجم وتهذيبهم السامي ومبادرتهم الكريمة للمساعدة، هذه المزايا الإنسانية الفريدة تزيد من إعجاب الزائر بهم واحترامه لهم. فإذا كنت متوجهاً إلى مكان تجهله وسألت رجلاً أو امرأة، فإن الياباني لا يكتفي بالكلام والإشارة، ولكنه يرافقك حتى تصل إلى ما كنت تسعى إليه.

ظروف العمل صارمة وكأن تقاليد الساموراي في عصور

الإقطاع قد انتقلت إلى الشركات المعاصرة، فلا تهاون ولا استرخاء ولا ثرثرة، ولا تواكل أو استهتار بالوقت. إنه اندفاع طوعي في الغالب، وربما كان منافسة بين العامل ونفسه، أو كان نوعاً من التحدي الخفي للآخر وللذات، ولا بأس أن نغفل هنا عامل الخوف. ومن القصص المحزنة التي تنشرها الصحافة اليومية أن بعض العاملين، بخاصة من سائقي الشاحنات الكبرى، يمضون أكثر من يوم أو يومين في سهر متواصل. وبعضهم يبقى ٧٢ ساعة بلا نوم، وربما أدت شدة الإرهاق بهؤلاء إلى الوفاة.. وعندئذ تلجأ الزوجة أو الأم إلى المحكمة.

لا يشغلهم التفكير في الماضي ولا المستقبل، أو هكذا يتظاهرون أمامك، إنما اللحظة الراهنة وارتشاف المتعة منها حتى آخر قطرة هي كل ما يعنيهم كما يبدو لك. الهموم الخاصة تظل حبيسة في الأعماق. وفلسفتهم تفصل فصلاً واضحاً بين ما هو خاص وبين ما هو عام. وهذا يظهر جلياً في اللغة. هناك كلمات كثيرة تعبر عن الداخل والخارج، الواجهة المشرعة على الشارع العام والخلفية الخاصة بأصحابها. هناك، مثلاً، كلمتان هما: تاتيماي Tatemae وهُنِّيه Honne تعبران عن الباطن المكنون والظاهر المكشوف، بين الداخل والخارج،

الجوهر والعرض.. وما شابه، مع مراعاة الخصائص في كل لغة. هناك دائماً أشياء خاصة بك وحدك لا يدري بها أحد.. وأشياء لا بأس من كشفها للآخرين. ويمكن العثور على عديد من هذه الكلمات المتقابلة. وربما كان من ملامح اللغة ذات الدلالة أن كلمتي: وجه وقناع لهما شكل واحد، رغم الاختلاف الكبير بين الوجه والقناع.

والزائر الغريب يتأمل المشهد ويغوص في تفاصيله وألوانه، يعجب بمآثره المشرقة، ويأسف لحوادثه الفاجعة، لكنه يظل بعيداً عاجزاً عن إدراك ما يكمن وراء السطح وما يدور في أعماق العديد من زوايا ذلك المشهد. ورغم حاجز الانطواء والكتمان هذا، فإن الإنسان كلما ازداد اقتراباً منهم واندمج في حياتهم، فإنه لا يحس بالتناقض بين الأصالة والحداثة، لكن كثرة حوادث الانتحار تشير إلى وجود شرخ داخل النفس الفردية والاجتماعية، وإن كان الانتحار عندهم من السمات الوراثية المعروفة في حياتهم وتاريخهم حتى أن لغتهم تضم في مفرداتها أكثر من كلمة لكل منها دلالة مختلفة. فكلمة شِنْجو تعني الانتحار المزدوج ولا سيما انتحار العاشقين، وهم يرسمونها بالرموز الصينية بشكل مؤلف من مقطعين: قلبShin ومركز أو وسط Ju وكأن الكلمة تعني انشطار القلب

إلى نصفين. وهذا الشكل مختلف طبعاً عن الانتحار الفردي جِساتسو، وهذا له صورته الخاصة في الأبجدية، إضافة إلى انتحار الشرف بطقوسه المتوارثة من عهد الساموراي، وذلك طوعاً أو كرهاً، ويسمونه سيبُكو أو هيرا كيري، أي بقر البطن أو شقه بمدية حادة من الخاصرة اليسرى إلى اليمنى بصبر بطولي مذهل.

وإذا عجز المنتحر عن استكمال طقوس الشرف المتوارثة حتى نهايتها المحتومة، بادر الصديق لإسعافه وإنهاء معاناته بضربة سيف تبتر العنق وتريح صاحبها من طول العذاب. ويبدو أنهم لا ينظرون إلى هذه المساعدة باحترام. فرغم أهمية الروائي ميشيما(يوكيو) وشهرته العالمية الواسعة، فقد تبين لي أن بعض أساتذة الأدب لا يحبونه، ولما سألتهم عن السبب، قالوا: إنه جبان!.. كان عليه أن يسترد شرفه بالانتحار البطولي، لكنه لم يستطع إكمال طقوسه التقليدية فاستنجد بصديقه، وكان يقف وراءه حاملاً سيفه باستعداد حازم، وضربة خاطفة تكفي وتريح. وقلت في نفسي: نعم تكفي، لكنها تحتاج قلباً من صوان!

ومن أشهر وقائع الثأر والانتحار قصة الـ ٤٧ ساموراي، ويسمون بعد فقدان راعيهم رونين Ronin، أي منبوذين

مشردين. لقد ظلوا يخططون سنتين حتى انتقموا من الإقطاعي الذي أساء إلى راعيهم ظلماً وعدواناً ودفعه إلى الانتحار. وبعد أن أدوا واجبهم انتحروا جميعاً.

لقد ساعدني إلمامي باللغة خلال السنة الأخيرة في مزيد من التفاهم مع الناس وسهولة التعامل معهم بحرية وتفاعل مفيد. وشاء حسن طالعي أن أحصل على أربعة كتب قيمة بأقلام يابانية تدور موضوعاتها حول المجتمع الياباني وتقاليده، إضافة إلى لمحات من علاقاتهم بالأجانب. كان الكتاب الأول «المجتمع الياباني» من تأليف نَكَنيه (شييه)* وهي أستاذة علم الإنسان (أنثروبولوجيا) في جامعة طوكيو. وكتابان من تأليف الدكتور دوي (تاكيو)*، طبيب الأعصاب والمحلل النفسي. وقد أحدث بكتابيه رجة مدوية في بحيرة التقاليد الساكنة، خصوصاً أن عنوان الأول «تشريح الاتكال» وعنوان الثاني «تشريح الذات». وكان الكتاب الرابع «اليابان بلا قناع» من تأليف الدبلوماسي كاواساكي (إتشيرو)*.

لن أتوقف طويلاً مع هذه الكتب، بل سأكتفي بإشارات خاطفة. إن روح الجماعة، بدءاً من النواة/ الأسرة، هي التي تحكم المجتمع الياباني، في مقابل الفردية الطاغية في الغرب. والمثل القائل: «الزوج يقود والزوجة تطيع» أو «الرجل

والزوجة جسد واحد» هو تأكيد على التكامل، في حين تقارن الباحثة هذه الحالة مع الهند فترى أن المرأة الهندية تستطيع أن تناقض زوجها بكل صراحة، وهذا أمر لا وجود له في اليابان. إن روح الفريق المتناغم، بدءاً من الأسرة، وبقيادة الأب أو الأخ الأكبر هو السائد هنا. وتشير الكاتبة إلى انتفاء تأثير القرابة على العمل أو الوساطة، فالأخ الأكبر قد يكون عمدة المدينة، في حين يعمل الأخ الأصغر ساعي بريد أو مجرد مراسل.

والياباني لا يستطيع أن يؤكد على فرديته كما في الغرب، في معزل عن الأهل أو الفريق الذي يعمل معه. ويشير الدكتور دوي في هذا السياق إلى بطل رواية كامو «الغريب»، فقد كان غريباً عن أمه ومعارفه ومجتمعه، وهذا لا يمكن أن نراه في اليابان. ولقد قارن الأستاذ المحلل بين مفهوم الفرد والمجتمع في بلاده وفي الغرب، بخاصة من خلال اللغة والأدب، إلا أن اللغة اليابانية تظل محتفظة بأسرارها العميقة ودلالاتها المختلفة. ويتابع الباحث موضوعه بتركيز أشد مع الروائي ناتسوميه في روايته «القلب». إن بطل الرواية الذي لا نعرف اسمه، وكأنه سر أيضاً يكتفي الطالب المعجب بلقبه المهني «سنسيه»، أي أستاذ. وهذا البطل يحتفظ بأسرار حبه ليأخذها

معه إلى القبر، ولا يجرؤ أن يصارح الطالب إلا في الأوراق التي تركها له بعد أن قرر الانتحار. فالموت وحده هو القادر على فتح صندوق النفس المغلق. لقد كان «الأستاذ» غريباً حتى عن زوجته ونفسه، وقد دفع بصديقه إلى الانتحار، بعد أن استأثر بحبيبته وأخذها زوجة له، دون أن تعلم المسكينة بشيء من القصة. وهذا جانب هام من اختلاف الشخصية بين الشرق والغرب.

وربما كان الاختلاف تاريخياً ونفسياً واجتماعياً. إن تعلق الياباني بأمه لا يقتصر على مرحلة الطفولة والشباب، ولكنه يمتد طويلاً.. وربما مدى الحياة. والمسألة هنا تختلف جذرياً عن عقدة أوديب في الغرب. وهذا ما يطلق عليه الدكتور دوي «الاتكال أو التبعية». إنه تعلق الطفل بأمه والتماس الدفء والأمان في حضنها، من أيام الرضاعة. وتتسع هذه النزعة إلى الرحلات الجماعية، وإلى ترحيب المطاعم الأجنبية بالمجموعات السياحية اليابانية لأن أحدهم يبادر إلى طلب وجبة معينة، فيسارع الجميع إلى طلب الوجبة ذاتها. وتشير الأستاذة نَكَنيه في كتابها إلى أن الصحافي الحر أو المتعاون[٣] من خارج الصحيفة لا وجود له في اليابان، بل لا بد للشاب أن يلتحق عملياً بصحيفة ما بعد تخرجه في الجامعة ليعمل

نحو عشر سنين متواصلة في التحقيقات وتقديم التقارير، قبل أن ينتقل إلى منصب أعلى، وهكذا حتى سن التقاعد. وغالباً ما سمعت وقرأت أن من يرتبط بالعمل في مؤسسة ما لا يستطيع أن يغادرها إلى أية شركة أو مؤسسة أخرى إلا في حالات نادرة جداً. وإذا نجح في الانتقال وحصل على مرتب أعلى، فإنه يظل معزولاً عن فريق العمل الجديد، من الناحية الاجتماعية والنفسية. والداخل المبتدئ في فريق عمل جديد يظل قابعاً في أسفل السلم المهني، حتى تنضج تجربته وتطول مدة انخراطه في عمله.

ويقولون إن التميز الفردي، سواء بين أساتذة الجامعات أو في المؤسسات الأخرى، لا أهمية له ولا جدوى منه، وغالباً ما يعاني أصحابه من القطيعة والمجافاة، لأن روح الفريق Group هي السائدة في العمل والمهيمنة على الجميع في نظام تراتبي وعمودي صارم. إن قيمة العامل تكمن في المجموعة التي يعمل ضمنها ومدى انسجامه مع أفرادها. وهي في المقابل تدافع عنه حتى إذا أخطأ، وتحاول تبرير أخطائه. وتتجلى هذه الروح الجماعية بوضوح في زيارة المعابد، وهي هنا على ما بدا لي عفوية تجري بالمصادفة واستئناساً بوقت

(٣) وهو ما يسمى في الإنجليزية Free lancer.

فائض، والدليل على ذلك كثرة السيدات والأطفال فيها. لكن مسألة فريق العمل والتركيب العمودي في المؤسسات تظل محكومة بتقاليدها الخاصة القاهرة.

ومن الوقائع الطريفة إلى حد الغرابة، أن الباحثة تشير إلى اندماج شركتين في مؤسسة واحدة ضخمة، وكان أصحابهما في الإدارة العليا يأملون نجاحاً كبيراً، لكن إنتاجية المؤسسة الجديدة انخفضت بشكل واضح، نظراً للتناقض في الانتماء والولاء، إذ بقي موظفو كل شركة موالين أوفياء لزملائهم فقط في مواجهة موظفي الشركة الأخرى. وهذا يعني أن الاندماج انقلب وبالاً وخسارة، بدل أن يكون منطلق نجاح وازدهار.

ونبقى مع صور أخرى للفرد والمجتمع في اليابان. ويورد الدكتور دوي طرائف ومفارقات من تجربته الشخصية في الولايات المتحدة، مبيناً الفارق الكبير بين الصراحة الأميركية والخجل أو المداراة اليابانية. كان مرة في زيارة صديق، وحين سأله صديقه إن كان يريد أن يأكل أو يشرب شيئاً اعتذر، مع أنه كان جائعاً. ويوضح أن اعتذاره كان على أمل أن يكرر صديقه الدعوة.. ولكن فات أوانها وراحت عليه! والدرس الذي استفاده من «صدمة الثقافة» كما يسميها أنه عاد إلى بلده وقد تخلص من بعض تلك الحساسية الزائدة. وهو يشير إلى

أن الياباني لا يستطيع أن يقول لضيفه «اخدم نفسك»، لأن في ذلك قلة اعتبار واحترام. وهو في هذه المسألة أكثر حرصاً في تواضعه من أبناء الأرياف عندنا، إذ يقولون للضيف: «تفضل، وإن لم يكن في سفرتنا شيء من واجبك»!

فرادة اللغة

لا أتصور أن كلمات معدودة بالألوف أو عشرات الألوف تكفي لفهم شعب من شعوب العالم والإلمام بخلاصة مكثفة من تراثه وثقافته وأسلوب حياته وتفاعله مع أبعاد محيطه الجغرافية والإنسانية والاجتماعية، سواء في بلده أو على مستوى العالم. لكن اللغة اليابانية تكاد تنفرد وحدها بهذه الخصائص المدهشة. في أول صيف أمضيته في طوكيو، أهداني الأستاذ نوتوهارا عدداً فريداً من مجلة الشمس «تايُو»، وهي من أهم المجلات الثقافية. وكانت المجلة قد أصدرت عدداً خاصاً يحتوي على مئة كلمة تعتبر الأساس والمفتاح لفهم اليابان وثقافته. وتشكل هذه الكلمات أكثر الأشياء حضوراً وقيمة وتداولاً بين الناس. عمدت إدارة المجلة إلى تكليف عشرات الكتاب من أدباء ونقاد وباحثين مختصين في مختلف الفنون والعلوم الإنسانية ومجالات النشاط الإبداعي والمواسم

والطقوس الاجتماعية، واقعاً وتاريخاً، فناً وعلماً ورياضة واقتصاداً، ومن خبراء الطعام إلى فنون الأناقة وطراز العمارة والخط والمسرح والدين وتنسيق الزهور. ويكفي أن يستعرض القارئ هذه الكلمات أو العناوين وموضوعاتها وما يصاحبها من صور حتى يلم بمساحة واسعة من ملامح الحياة اليابانية وأطيافها الثقافية وتقاليدها الأصيلة المتوارثة عبر الأجيال، إضافة إلى أهم ملامح الحياة المعاصرة.

إنها لائحة من الكلمات مدروسة بوعي موسوعي عميق وعناية علمية فائقة، مكتوبة بإيجاز مكثف بحيث لا تحتوي الصفحة على أكثر من موضوع بلغتين: النص الياباني أساساً وترجمته الإنجليزية إلى جانبه، وفي الصفحة المقابلة للنص صورة فنية معبرة عنه، وهي مرفقة بعنوان المقال واسم كاتبه، ويبدو العنوان بأشكاله الصينية البارزة لوحة رمزية مصغرة جديرة بالتأمل كذلك. وقد بدأت اللائحة بكلمة الأناقة أو الغندرة إكي وانتهت بمصارعة السومو الخاصة بذوي الأجسام الضخمة، مروراً بالوشم، ترتيب الزهور، الحديقة التقليدية، طائر الكركي أو الغرنوق، ألوان الطعام والحلوى كالأرز ومصنوعاته، المعجنات وأنواعها وأهم أطباق الأسماك، وصولاً إلى أهم المعابد والاحتفالات وديانة الشنتو والبوذية،

وحتى فرقتها الصوفية المعروفة باسم «زِن». ونمر كذلك بأنواع الشعر مثل الواكا والهايكو، وفنون المسرح بأنواعه: الكابوكي، النو، الدمى، الراقص. وهناك أيضاً كلمات ذات مواضيع لها خصوصيتها المتميزة: حقل الأرز، زهرة الكرز، العلَم، الإمبراطور، الدستور، الشعر، القمر، الشركات، الزلازل، البحر.. حتى نستكمل المئة! ولا ننسى ضمن هذه اللائحة الخط الفني، الفروسية، فتيات الجيشا، الرحلات الجماعية، إلى جانب آلات البيع الأوتوماتيكية، ومكتب البوليس الذي يشبه في صغره الكشك ويطلقون عليه لقب «علبة أو صندوق».

وإذا كان المجال لا يتسع لكي أختار إلا عدداً محدوداً من هذه الكلمات وموضوعاتها، فلعل الأجدى أن أتناول بعضها بلمحات موجزة، ولو بسطور معدودة، ليطلع القارئ على أهمية هذه الكلمات وعلاقتها الوثيقة بالتراث والثقافة الراهنة والحياة المعاصرة.

- الأناقة: يقول كاتب المقالة، وهو مختص بالثقافة المقارنة، إن كلمة إكي في اليابانية الحديثة يمكن ترجمتها «أناقة»، وربما شابتها نزعة من تبرج أو غندرة. وهي قريبة من Chic الفرنسية التي أخذنا منها كلمة «شياكة» في العربية الدارجة، وإن كانت لا تقتصر على أناقة المظهر، لأنها تعبير

عن حس جمالي تنفرد به اللغة اليابانية، لأن الكلمة متعلقة بمرحلة إيدو من الحكم العسكري والإدارة الإقطاعية ونمو طبقة التجار المترفة، إلى جانب طبقتي الحرفيين والفلاحين. ويشير الكاتب إلى أن الكلمة في الأصل تعبر عن علاقة جمالية خاصة في الحب غير الشرعي، وهي قريبة جداً من التعلق بفتيات الجيشا أو محظيات البلاط.

- طائر الكركي: كاتب المقالة مختص بعلم الأعراق، ويبدأ مقالته بالإشارة إلى أن هذا الطائر الجميل يشكل رمزاً للخطوط الجوية، وعلامة تجارية مشهورة تمثل اليابان في حضورها الزاهي ما وراء البحار. وهناك العديد من الحكايات والأساطير التي تتحدث عن الطيور البيضاء ذات المظهر النبيل. والطريف أن الكركي طائر مهاجر، يأتي من بيئته الأصلية في سيبريا إلى اليابان في الشتاء ويعيش على حبوب الأرز المتساقطة في الحقول، ولذلك يتفاءل فيه الناس كثيراً ويعدونه طالع خير. وتروي بعض الحكايات أنه هو أول من جلب الأرز إلى اليابان لتبدأ زراعته وتنتشر على نطاق واسع. وفي مرحلة الاحتلال الأميركي عرضت مسرحية بعنوان «كركي الشفق» نالت شهرة واسعة. وهي قصة رمزية تحكي عن رجل أنقذ حياة أنثى من طيور الكركي، تتحول سراً إلى امرأة جميلة وتصبح زوجته.

وتكافئه على معروفه فتنسج له ألف قطعة قماش فاخر من ريشها الأبيض الناعم، لكنه من شدة طمعه يبيع القماش. ولم يقنع بذلك، بل راح يراقبها خفية فيكتشف أنها من طير الكراكي وأن القماش من ريشها، وكان ذلك وبالاً عليه. وهكذا تنتهي القصة بأن تسترد الغرنوقة شكلها الأصلي وترحل إلى السماء، تاركة إياه وقد دمر سعادته بيديه.

- جبل فوجي: جبل بركاني هامد يبلغ ارتفاعه ٣٧٧٦ متراً، ويقال إنه تشكل نتيجة الزلزال الذي أدى إلى انخفاض سرير بحيرة بيوا سنة ٢٨٦ ق.م، أجمل وأكبر بحيرة في اليابان. ويقع هذا الجبل المخروطي الجميل إلى الجنوب الغربي من طوكيو ويبعد عنها نحو مئة كيلومتر، ويعد من أهم المعالم الطبيعية المقدسة لدى العديد من اليابانيين، فضلاً عن كونه رمزاً وطنياً مشهوراً. ويبلغ تعلق الناس واهتمامهم به درجة كبيرة، خصوصاً في صباح اليوم الأول من السنة الجديدة حيث يصحون باكراً على أمل أن يحظوا برؤيته مع شروق الشمس في ذلك اليوم، تفاؤلاً واستبشاراً، لتكون سنتهم سعيدة مباركة. كاتب المقال شاعر، وانسجاماً مع مزاجه الشعري، فهو لا يبدي إعجابه بهذا الطود الشامخ المكلل بالثلوج، ولا يتردد في الاعتذار من محبيه.

وفي التفاتة جميلة يذكر الكاتب أنه كان مسافراً يوماً مع عدد من المهندسين الهنود، وحين لمح جبل فوجي من نافذة القطار دعاهم لرؤيته، ولم يكتم سروره بذلك لأنه أدرك مدى إعجابهم بذلك الرمز الطبيعي الجميل.

ـ السومو: كاتب المقالة باحث في التاريخ الطبيعي، وهو يشير إلى أن بداية هذه المصارعة الفنية المتميزة بأجسام ضخمة تعود إلى أسطورة تحكي عن صراع نشب بين عملاقين سماويين على حكم البلاد. ولكنها اليوم رياضة جميلة وتحظى بجمهور كبير من المعجبين، وهي تحتفظ بلمحات متناثرة من طقوسها الأسطورية القديمة، كما أنها مرتبطة بحسن الطالع. إن جسم المصارع يزن بين ١١٠ و١٥٠ كيلوغراماً، وهو خال من الشعر وذلك بفعل التدريب الطويل. وفي طقوس الشنتو التي تنظر للطبيعة بعين القداسة، ترتبط هذه الرياضة بأحوال محصول الأرز بين الجودة والقحط، وما زالوا في الريف ينظمون حلقات المصارعة بين الفتيان، كرمز للتضحية والقبول.. وأملاً في موسم جيد ومحصول وفير.

وإذا كان بعضهم يربط أصولها بمظهر الأم الحبلى، كرمز للطبيعة. الأم التي تجود بمواسم الخير، فإن آخرين يقرنونها بالبطل الأسطوري كنتارو وصراعه مع الدب. وفي جميع

الحالات فإن مشاهدتها، سواء في المدرجات أو عبر شاشة التلفزة، تشكل متعة كبيرة. وهم يقيمونها في دورتين، ربيعية وخريفية.

- الفروسية: يقول الكاتب إن هذه الكلمة لاقت من التحريف والتشويه ما لم تواجه مثيلاً له أية كلمة أخرى. وتبدو صورتها مقترنة بالسيف. وكانوا في الماضي يعتبرون أن الفروسية روح الشعب الياباني. وقد حازت على أسمى مراتبها مع ظهور الساموراي. ويقال إنها بدأت في عهد الإمبراطور جِمُّو، مؤسس ذلك النظام الوراثي في البلاد نحو ٦٥٠ سنة قبل الميلاد. وبعض الباحثين يشير إلى أن الفروسية تدل على القواعد والمبادئ الأخلاقية التي يلتزم بها الساموراي، وهي ليست مدونة في نصوص وإنما يتناقلونها شفاهاً وكأنها أسرار مقدسة. ويقال إن هناك عدداً قليلاً من الأمثلة والحكم المأثورة التي احتفظ بها قلة من قادة الساموراي وبعض الباحثين، لكنها غير مكتوبة ولا يمكن التكلم بها لأنها مسجلة في الروح! لذلك، يؤكد الكاتب أن من المستحيل تحديد وقت أو مكان للقول: «هذا مصدرها»، وهي بشكل عام مرتبطة بالعصر الإقطاعي.

لكن العبارة تغيرت دلالتها ومغزاها على مر العصور،

فالموظف أو العامل اليوم هو ساموراي العصر. ومن هنا انقلب معناها إلى «كيف تدبر شؤون الحياة؟» وكيف تنجح في حياتك؟» ويشير الكاتب في خاتمة المقالة إلى أغنية ساخرة تقول: «قدم لمديرك هدية كل شهر. وهذه لا تشملها الهدايا المقدمة في الصيف والشتاء.. وفي المناسبات غير المتوقعة»!

أمزجة ومفارقات

قال لي أستاذ ياباني صديق بين الجد والمزاح: «هل تعلم أن الفرنسيين يصفون الياباني بأنه حيوان اقتصادي؟» قلت له مواسياً: «لا بأس عليكم، يمكن أن تواجه في سوريا كثيراً من مقلدي دون كيشوت المهووسين بالسياسة، ولا حرج في أن تطلق على أي واحد من هؤلاء بأنه حيوان سياسي!».. لكن الصديق تابع القول: ويروى عن الزعيم الفرنسي ديغول أيضاً أنه كان على موعد مع مسؤول ياباني كبير يزور باريس، فقال لمن حوله من أركان دولته، وهو يستعد لاستقبال ضيفه: «دعونا ننتهي من لقاء هذا الترانزستور»!

وفي هذا السياق، سألت مستعربة قامت بزيارة أكثر من بلد عربي وحدثتني عن انطباعاتها في تلك الزيارات. لكن العبارة التي لا يمكن أن أنساها، حين قالت في مجرى حديثها وبكل

بساطة: هناك شيء وحيد لم أفهمه في بلادكم، وكان يخيفني: كنت أشعر أن نظرات الرجال تأكلني، وأحيانا كانت نظرات بعض النساء كذلك! لم أعلق على هذه العبارة، لكني تصورت أن هذه السيدة لو كانت تتقن العربية أكثر لاختارت «تلتهمني» بدلاً من «تأكلني». فهل يعاني العربي من جوع تاريخي مزمن لاقتناص المرأة، إلى هذا الحد الوحشي؟ ولماذا كانت كثرة السبايا مقترنة بالفتوحات والحروب وطغيان النخاسة وتجارة الرقيق الأبيض في الحواضر العربية والسلجوقية والقاجارية والتركية؟

ويورد الباحث كاواساكي في كتابه «اليابان بلا قناع»، المشار إليه في فصل سابق، وقائع وقصصاً غريبة عن عادات أبناء وطنه وعلاقاتهم بالعالم الخارجي، كما يورد أحداثاً أخرى تكشف مدى استكبار بعض الغربيين وتحاملهم وتعاليهم على هذا الشعب الكريم. ومن أقسى ما يرويه الكاتب في مستهل الفصل الأول عن الجنرال ماك آرثر، وكان الحاكم الأعلى لليابان خلال السنين السبع من الاحتلال الأميركي، أنه قال في أحد مجالسه الخاصة: «إن مستوى إدراك الشعب الياباني لا يزيد عن عقلية طفلة في الثانية عشرة من عمرها»! وتسربت العبارة الجارحة إلى الصحافة، وتلقاها المسؤولون

باستياء، كما انتشرت بين الناس وأثارت أمواجاً من الغضب والاستنكار. وإذا لم تنطلق هذه المواقف بدافع عنصري بغيض، فهي تعبر عن نزعة مرضية متعالية، ولا تليق في بناء علاقات ودية سليمة ومتكافئة بين الشعوب. لكن بعض أساتذة الجامعة يرون أن الجنرال الأميركي لم يكن متجنياً في نظرته تلك، لأن المسؤولين اليابانيين في لقاءاتهم معه لم يكونوا ليناقشوه مناقشة ندية، وإنما كانوا يستمعون له ويوافقون على كلامه بهزة الرأس، خصوصاً أن الجنرال أرغم إمبراطورهم المبجل على الاستسلام، نازعاً عنه هالة القداسة. وربما كانت المرة الوحيدة التي واجهوا الجنرال فيها باحتجاج شديد، حين قرر أن يصدر صكوكاً بدلاً من الين في التعامل الاقتصادي، لكنه تراجع عن ذلك القرار، ولم يسلم من لوم رئيسه في البيت الأبيض. ولعل الإشارة هنا تكفي بأن الحالة النفسية للشعب الياباني بلغت في انكسارها أمام الاحتلال أقسى الدرجات وأقصاها، فقد أخبرتني إحدى معلمات اللغة أن الأمهات كن يلجأن في تهدئة أطفالهن إلى القول: «اسكت ونم.. وإلا جاءك عسكري أميركي!»

وقد واجهت بنفسي أكثر من موقف عدائي لدى عديد من الغربيين، كما لمست بعض الانطباعات الطيبة، من أساتذة

أوروبيين وأوروبيات. كنت على معرفة جيدة بأستاذ من اسكوتلندا، متزوج من يابانية ولهما ابنة تدرس اللغة الإنجليزية في الجامعة، وهو أستاذ أكاديمي قدير أمضى ما يزيد عن عشرين سنة في تلك البلاد وكان يتقن اليابانية كأبنائها، وكثيراً ما تبادلنا أحاديث الأدب إعجابا بالمستوى العالمي الراقي الذي بلغته الرواية هناك، وتقديراً لكوكبة من مبدعيها. وفي آخر لقاء طال الحديث بيننا، وخضنا في مواضيع شتى. وحين وصلنا إلى طبيعة المجتمع الياباني قال: «هذا شعب يعاني من عقلية الجزيرة، ولفظ العبارة بنبرة لا تخلو من ازدراء. قلت: أرجو ألا تنسى أن بريطانيا جزيرة أيضاً. أجابني بحدة: «لا، أرجوك لا تقارن. هذا شعب وديان لا يرى أبعد من أنفه»! ويبدو أن عقلية الجزيرة التي يتهمون بها ذلك الشعب هي حالة مرضية، نفسية وعصبية وثقافية، ما زال كثير من أعلام الإنتلجنسيا الغربية يعانون منها، وهي ناتجة من حكمهم على العزلة التي فرضها اليابانيون على بلادهم وأنفسهم طوال أجيال. فسكان الجزيرة يشعرون بأنهم أهم وأرقى من غيرهم، وهم في الوقت ذاته يخافون من كل غريب وافد إلى شواطئهم، ولا يميلون إلى الخروج والتواصل مع البلدان والشعوب الأخرى. وقد شعرت أن هذا حكم متعسف

ظالم، وربما لا يخلو من نزعة عنصرية ما زالت تعاني من رواسبها دوائر المركزية الأوروبية، والغربية بوجه عام.

يروي التاريخ أن الأرخبيل الياباني، قبل الاحتلال الأميركي، لم يتعرض للغزو الأجنبي إلا مرتين. وذلك أن الإمبراطور المغولي قبلاي خان قام بغزو الساحل الياباني في ١٢٧٤ للميلاد، وكانت الهزيمة بانتظاره. وأعاد الكرة في ١٢٨١م وحاق الاندحار الساحق بقواته من جديد، بفضل عاصفة مفاجئة دمرت المراكب المغولية في المحاولتين. لذلك أطلق اليابانيون عليها اسم كامي كازيه: «الريح المقدسة» أو «الريح الإلهية». وتشير الدراسات إلى بطولات مذهلة وتضحيات جسيمة في مقاومة أولئك الغزاة. وقد فكر الإمبراطور ذاته بغزوة ثالثة، لكن المنية عاجلته وحالت دون تحقيق أطماعه. ولم ينس الشعب الياباني مآثر تلك الريح السماوية المباركة، ثم صارت رمزاً وطنياً لم يترددوا بإطلاقه على أسراب الطيارات التي قامت بغارات فدائية في الحرب العالمية الثانية، بخاصة خلال غارتهم الصاعقة على الأسطول الأميركي الرابض في بيرل هاربر.

لكن زيارتي لهيروشيما كانت رجة صاعقة، نفسية وفكرية وصحية، كادت أن توقعني طريح الفراش، رغم أن رفيق الرحلة

كان أنيساً حافلاً بفيض من الاستيعاب والطيبة والعزاء، وهو كتاب «خواطر هيروشيما» للروائي أووِه (كنزابُرو)* الحائز على جائزة نوبل ١٩٩٤. كنت قد وصلت المدينة قبيل الغروب فتوجهت لمشاهدة المعلم الباقي هيكلاً عظمياً للذكرى والاعتبار من تلك الأيام. وفي ضحى اليوم التالي زرت موقع إلقاء القنبلة الرهيبة والمتحف، وتجولت في الساحة التي احترق الباص فيها وتلاشى بكل من فيه، وتأملت المقعد الحجري الذي احترق طرفاه وكستهما ظلال داكنة، بينما ظل وسطه بلون أبيض لأن جذع الصبية التي كانت تجلس هناك تلقت الإشعاع بجسمها الناضر ولم يبق منها إلا ذلك الخيال. ساعتان في ذلك الموقع الرهيب كانتا كافيتين لصدمة عنيفة عانيت منها أسابيع. وقد رجعت إلى طوكيو في اليوم ذاته، وفي رأسي يدوي خليط صاعق من أحاديث الأمهات وآهات الضحايا كما يشير إليها كتاب «الخواطر»، أو كما سمعتها من بعض التسجيلات، وهم يستغيثون متوسلين: «ماء.. ماء.. ماء!» وكانت هذه الكلمات مستهل قصيدة لم أستطع استكمالها، فاكتفيت بعد الاستهلال بهذا الابتهال: «يا اَلله، حفنةَ ماءٍ، قطرةَ ماء، دمعة ماء»!

ويورد أووِه في «خواطره..» قصة مؤثرة عن شاب أصابه

السرطان بفعل الإشعاع، وجهد الأطبـاء في علاجه حتى تحسنت حالته، فدبروا له عملاً في مطبعة. وأتقن الشاب عمله وصار مضرب المثل. وكانت حبيبته التي تصغره بعدة سنوات عاملاً مساعداً في انتصار الأمل، وهو المثل الأعلى الذي يؤكد عليه الكاتب. لكن الفتى المكافح انتكس بعد سنة أو أكثر وفارق الحياة. وشرعت الإدارة البيروقراطية تلوم الأطباء الذين شجعوه على العمل، كما لم يسلم الضحية من اللوم بدعوى أنه أخفى مرضه عن حبيبته. لكن الفتاة قامت بزيارة المستشفى بعد رحيله، حاملة لهم هدية معروفة في اليابان بأنها رمز المحبة، وهي تمثال غزالين صغيرين. قدمت لهم الهدية وشكرتهم على عنايتهم الكبيرة به، وعلى توفير العمل الذي أسعده كثيراً وزاده أملاً وسعادة، مؤكدة لهم أنه صارحها بمرضه منذ البداية، ولم يخدعها كما أشاع المغرضون. لكنها أحبته لشهامته وشجاعته وتحديه. ثم ودعتهم.. لتنشر الصحافة في اليوم التالي خبر التحاقها بحبيبها...

يبدو لي أن ضرب هيروشيما سيظل كارثة استثنائية، وهي أفظع من طاقة اللغة على الاستيعاب والتعبير. والمهم ألا تتكرر كما يؤكد أووِه. وللمصادفة المشؤومة التقيت زميلاً نمساوياً من مدرسي اللغة الألمانية في إحدى الجامعات، وسأسميه

فرانك لأني مسحت اسمه المشؤوم من ذاكرتي. سألني: أين كنت؟ قلت: «في هيروشيما.. وقد رجعت مشحوناً بالنقمة على طواغيت الحروب، فما كنت أتصور أن أهوال القنبلة الذرية يمكن أن تصل إلى هذه الدرجة من الفظاعة الوحشية في الإبادة الجماعية والدمار الشامل...». لكن الرجل لم يمهلني حتى أكمل، بل قاطعني صائحاً: «علي، لا تغلط.. لو كان الأمر بيدي لقصفتهم بأربع قنابل أخرى!»

لم يكن في صوته وملامح وجهه أي دليل على العبث والمزاح، بل كان جاداً في كلامه، فقلت باستنكار: «فرانك، أنت أستاذ هنا منذ أكثر من عشر سنين.. ولك صديقة يابانية، وربما جاءك أطفال، نصفهم يابانى، كيف تقول مثل هذا الكلام الفظيع؟» رد بشيء من القناعة الباردة: «أنت جديد هنا، لا تعرفهم.. ألم تقرأ ما تنشره الصحافة عن الخلل بالميزان التجاري بينهم وبين أولئك الأميركيين الأغبياء؟ إنها الحرب الاقتصادية كما تصفها إحدى صحفهم. ألا تشعر بمعاملتهم العنصرية لنا؟ هل ترتاح لكلمة غايجين Gaijin؟ قلت: نحن هنا فعلاً أجانب وغرباء، فما الضير في أن يطلقوا علينا هذه الصفة؟ قال: إن دلالة الكلمة أبعد وأبشع من «غريب أو أجنبي» إنها تعني «دخيل» أو «متطفل خطير»!

الاستثناء اللطيف الوحيد جاءني من السيدة جوليانا، أستاذة اللغة الإيطالية في الجامعة. كنا نسير ليلاً في غينزا (حي الفضة)، وهو من أرقى أحياء طوكيو وأكثرها ترفاً، وكان في زوايا الشارع وإلى جانب مداخل المؤسسات آلات كهربائية مبرمجة لبيع السلع الصغيرة كالدخان والمشروبات وما شابه. توقفت قليلاً أمام إحدى تلك الآلات وهمست: «هل تعرف أن هذه الآلة لو كانت في إيطاليا لحطموها ونهبوا ما فيها من أول يوم؟.. هذه بلاد مثالية في الصدق والأمان وحسن المعاملة».

وتذكرت أن كتاب الإحصاء السنوي أشار إلى أن في طوكيو وحدها نحو ٨٠ ألفاً من تلك الآلات. ومن أطرف ما قرأت من الحوادث التي تنشرها الصحافة اليومية القصة التالية: «هناك سيدة عجوز سحبت رصيدها الضخم من البنك، وضعته في كيس كبير وذهبت لتستريح في الحديقة المجاورة، لكنها رجعت إلى بيتها وقد نسيت الكيس في مكانه. ومر عابر ياباني فأخذ الكيس وسلمه لمكتب البوليس، وكانت المفاجأة أن المبلغ كان في حدود ٦٠ مليون ين، أي ما يعادل ٦٠٠ ألف دولار أميركي في ذلك الحين. وفي محطات القطار مكتب خاص بالمفقودات التي ينساها أصحابها في الحافلات، يكفي أن تظهر بطاقة الهوية وتحدد الغرض المفقود حتى تسترده.

وهناك وقائع وتصرفات مخجلة إلى حد العار. يذكر السيد كاواساكي في كتابه أن شركة تجارية كبرى دعت خبيراً بريطانيا لزيارة طوكيو وبالغت في إكرامه. كان الرجل يعاني من مرض السكري المزمن وساءت حالته كثيراً فأدخل أفضل مستشفى وفرضوا عليه حمية صارمة كان لها أثر كبير في تحسن حالته. وكانت زوجته في أستراليا فأسرعت بالمجيء إلى طوكيو لتكون قريبة من زوجها، وحين اكتشفت الحمية رفضتها وراحت تقدم له بالخفاء من ألوان الطعام ما يحلو لها، فكانت القاضية وتوفي المسكين. ولم تكتف الزوجة الماكرة بذلك، بل أقامت دعوى ضد الشركة زاعمة أنها أهملت صحة زوجها وحصلت على مبالغ طائلة! لم تشأ الشركة أن ترد على الدعوى الزائفة وتفضح مزاعم الزوجة، تجنباً للفضيحة. ومن يطلع على هذه القصة ويتأمل في تفاصيلها، لا يستبعد أن تكون تلك المرأة المريبة عمدت إلى التخلص من زوجها لتحصل على تلك الأموال. وهناك عشرات القصص المشابهة، ذلك أن كثيراً من الشركات اليابانية، صناعية وتجارية، إذا تعرضت للقرصنة والابتزاز فإنها تفضل إنهاء المشكلة بالحسنى والتراضي والكتمان، مهما بلغت التكاليف، حفاظاً على اسمها وسمعتها.

في حديث الأدب توشك أن تسمع اسم أكتوغاوا* يتردد على كل لسان. فهو شاعر وكاتب مقالة، فضلاً عن كونه رائد القصة القصيرة في اليابان. وأول عمل شهدته له كان عرض مسرحية «راشومون» على مسرح الحمراء في دمشق. مصرع رجل في غابة، جريمة غامضة، يتوالى في الكشف عن ملابساتها أربع شخصيات، كل من وجهة نظره، وكل منهم يدلي بشيء يناقض الآخر، حتى زوجته.. وتظل الحقيقة غائبة. والغموض في أعماله يلقي مزيداً من الضوء على غموض الشخصية اليابانية. ترك هذا الكاتب المبدع أكثر من مئة وخمسين عملاً أدبياً ما بين قصة وشعر ومقالة، ورحل وهو في الخامسة والثلاثين بجرعة منوم زائدة. وتقديراً لمكانته الأدبية أسسوا باسمه جائزة قيمة في دورتين، ربيعية وخريفية، في السنة.

في مستهل خريف ١٩٩٤، وقبل ما يزيد عن شهر من موعد الإعلان عن جائزة نوبل، بدأت الصحافة اليابانية تتحدث باهتمام بالغ عن الجائزة وتطرح العديد من الأسماء، وكأن رؤساء التحرير في تلك الصحف كانوا على علم مسبق بالحدث العالمي المنتظر. تدفقت التصريحات وتضاربت الأهواء، واختلطت التكهنات بالأحلام. لكن الروائي أووِه (كِنزابُرو)،

إدراكاً منه لمكانته الإبداعية، ظل بعيداً عن وهج الأضواء وهدير الأقلام، ويبدو أنه كان مطمئناً إلى أنه الجدير بنيلها، إذا خطر للأكاديمية السويدية واللجنة النرويجية أن تلتفتا إلى اليابان من جديد، بعد ست وعشرين سنة من التجاهل والإهمال.

وقبل الدخول في موضوع الجائزة أود الإشارة إلى أهم الدوافع الكامنة وراء منحها لمبدعين يابانيين في سنتين محددتين هما ١٩٦٨ و١٩٩٤. لقد زرت هيروشيما وناغاساكي.. وشاهدت بأسى صاعق ومرارة جارحة أهوال الكارثة الذرية في المدينتين، ورجعت إلى طوكيو مغموماً مثقلاً بالكوابيس... وقد رويت من قبل بعض الوقائع والمواقف الغربية التي واجهتها يومئذ، ولعلها كانت كافية. ومع ذلك، فأنا لم أفهم سبب هذه العداوة التي تصل أحياناً حدودها القصوى، بعيداً عن ثنائية كبلينغ، شاعر الاستعمار البريطاني في الهند: «آه، الشرق شرق.. والغرب غرب، والاثنان لن يلتقيا»!

لكني أعلم أنهم تذكروا اليابان أخيراً وأكرموه في سنة ١٩٦٨، أي في ذكرى مرور مئة سنة على انفتاح اليابان على الغرب، يوم منحوا الروائي كاواباتا (ياسوناري) أول جائزة من جوائز نوبل تمنح لأديب ياباني، وفي سنة ١٩٩٤، عشية

الذكرى الخمسين لإلقاء القنبلة الذرية، أعطوا الروائي أووِه الجائزة الثانية. ولكل واحد من هؤلاء قصة جديرة بالحديث. كاواباتا اهتم بالتراث البوذي، فقد أدار ظهره للنزعات والأزياء القادمة من الغرب واهتم بتراث أمته، ولا سيما ذلك الجمال الساحر في ملامح الطبيعة وتلك الروائع الشعرية النابعة من الصوفية البوذية.

أما أووِه فقد كرس حياته للمنكوبين في هيروشيما وناغاساكي والمعوقين بسبب الكارثة النووية وغيرها من الكوارث، فضلاً عن اهتمامه بابنه البكر المصاب بآفة دماغية منذ الولادة. وقلما نقرأ رواية لهذا المبدع إلا ونرى فيها ظلالاً من هموم المعوقين. وفي كلمته الاحتفالية أمام لجنة الجائزة في الأكاديمية السويدية، تحدث أووِه بالتفصيل عن محنة ولده الذي تحول بعد ثلاثين سنة من الرعاية المذهلة إلى مؤلف موسيقي، وقد أشاد الكاتب بالدور الإنساني المعجز الذي قامت به زوجته في هذا الشأن. ولم ينس هذا المبدع أن يشير إلى الرائد كاواباتا وحديثه في كلمة الجائزة عن جمال اليابان، طبيعة وتراثاً، وعن الحكمة البوذية متمثلة في الشعر الصوفي، بخاصة من جماعة الزن.

روائي آخر هو تانيزاكي (جونئتشيرو)* عاش يحلم بجائزة

نوبل، لكنه لم يحصل عليها لأنه رحل قبل موعد منحها لكاواباتا بثلاث سنوات. ويمتاز هذا الكاتب أنه أعاد صياغة «حكاية غنجي» بلغة عصرية، فضلاً عن أعماله الروائية المسكونة بهواجس الحداثة، ومنها «يوميات عجوز معتوه». الروائي الرابع الجدير بالتنويه هو ناتسوميه (سوسيكي)، وأهم رواية كتبها هي Kokoro: ومعناها: «القلب». وكان ينبغي أن أتحدث عنه في مستهل هذا الفصل لأنه رائد الرواية الحديثة في اليابان، لكن نفوره من الحداثة الغربية التي اقتحمت بلاده في أواخر القرن التاسع عشر، جعلهم يتجاهلون جدارته. إن أهمية هذا الكاتب جعلت صورته مطبوعة على العملة الورقية من فئة ألف ين. ولعل هذه الإشارة تكفي لمعرفة المكانة التي يتمتع بها سوسيكي في بلاده.

وفي ختام هذه العجالة الأدبية، أود أن أشير إلى رواية كوماتسو (ساكيو)*: «اليابان تغرق»، وقد نشرها في أعقاب انفجار أسعار النفط في ١٩٧٣، وكان لها صدى واسع ومخيف. يمكن تصنيف هذا العمل في إطار الخيال العلمي، فأحداث الرواية كوابيس خانقة، وكأن تلك البلاد الجميلة لا تكفيها الزلازل والأعاصير والبراكين، حتى تخيل الكاتب كارثة أدهى أدت إلى ابتلاعها في ذلك المحيط الرهيب.

وإذا كان الشعر في عصرنا كالموسيقا، فمن المريح أن تقرأه وتستمتع به قبيل النوم كتعويذة ندية مباركة لإبعاد الهواجس والكوابيس، فإن الرواية اليابانية تقف في طليعة الفنون والأجناس الأدبية الممتعة، ولا أرى أنها تقل قيمة وروعة عن مستوى الرواية في أمريكا اللاتينية. ولكن يبدو لي أن من العسير ترجمة تلك الروايات بدقة وصدق، لأن العديد منها يتضمن إشارات ومشاهد جنسية لا تبيح الحساسية العربية نشرها ولا تنسجم مع التقاليد السائدة، فنحن لا نرى أن لكل من الفن والأدب عالمه الخاص وفضاءه المستقل، ولكنه محكوم بمعاييرنا، خصوصاً في مخاطر الاقتراب من المحظورات الثلاثة: السياسية والدين والجنس.

مشاهدة المسرح الياباني التقليدي كابوكي متعبة بقدر ما هي ممتعة. وهو عرض غنائي وموسيقي راقص ولا يخلو من صخب وحركات ذات إيقاع خاص فيها مقدار غير قليل من المبالغة. ومن تقاليده أن الرجال هم الذين يقومون بأدوار النساء، كما أن الأزياء التقليدية الفاخرة من السمات الأساسية، إلى جانب الصوت وطلاء الوجه بطبقة بيضاء سميكة، إضافة إلى باروكة الشعر المستعار التي تكلل الرأس، والمشية البطيئة المترنحة إلى جانب نعومة الصوت، هذه كلها تعطي انطباعاً

بأنوثة مغرية. وأطرف ما قرأت في رواية تانيزاكي «يوميات عجوز معتوه» أن بطل الرواية كان مولعاً بممثل يؤدي دور امرأة، ويعبر بلهفة عن عشقه لصاحب ذلك الدور حتى أنه يتوسط إحدى السيدات لتهيئ له لقاء معه، ويشترط عليها أن يكون في زيه الأنثوي كما يؤدي دوره على المسرح.

يرجع تاريخ هذا الشكل المسرحي إلى بدايات العهد الإقطاعي، هادفاً إلى تسلية طبقة التجار، وكان فريق التمثيل فيه جميعاً من النساء. لكنهم في عهد ميجي منعوا النساء من أداء هذا الفن الجميل، فقام رجال مختصون بهذه الأدوار الأنثوية. وغالباً ما تكون أحداث العرض قصصاً من الماضي ذات مواضيع مختلفة: حب، صراع، خيانة وتآمر.. وما شابه. لكن المتعة هي الهدف الأساسي من العرض. وإذا كانت القصة مأساوية، فلا بأس أن يتجنبوا أحياناً عرضها حتى نهايتها. ولأن العروض تجري في النهار فقط، كانت المسرحية تتوقف مع غروب الشمس في أي فصل وفي أي مشهد منها. وهكذا كانت الفرجة على العرض وأداء الممثلين في السرد والغناء والرقص التقليدي أو الانسيابي هي الغاية من الحضور والمشاهدة.

ومن ملامح هذا المسرح وجود جسور ممتدة عبر الصالة

بين الجمهور، وهي تفيد في الأداء والخروج والدخول أيضاً، كما أن المنصة تدور وتجعل تغيير المشاهد أسهل وأسرع، إضافة إلى أن هناك ما يسمى بالباب المسحور Trap door وهو في وضع أفقي خفي مع الأرضية أو السقف ويسهم في سرعة ظهور الممثل واختفائه. وهناك أيضاً مساعدون بملابس سوداء يظهرون كذلك على منصة العرض، وليس لهم أي دور تمثيلي ولا يعيرهم المشاهد الياباني أي انتباه، لكن يصعب على الغريب أن يغفل عن وجودهم وتحركاتهم. ومع أن هذا الشكل المسرحي مر بتطورات عديدة في مراحل تاريخية مختلفة، إلا أن أسلوبه التقليدي الخاص لا يزال هو الغالب.

ومسرح النو في المقابل مختلف جداً ويعد من «المسرح الشامل»: سرد، غناء، إيماء، موسيقا، أصوات فردية وجماعية، رقص، أقنعة.. ونصوص شعرية، هذه كلها تشكل عرضاً فنياً جمالياً مدهشاً، لا علاقة له بالواقع، وإنما ليعطي إيحاءات غامضة ومؤثرة بنوع من الجمال الأثيري العميق، ذلك الجمال الكامن وراء سطح الأشياء ومظاهر الحياة، جمال يمكن وصفه بأنه روحاني وهو غير قابل لأي تعبير أو تفسير مباشر، وإن كان الغريب يجد صعوبة في فهمه واستيعابه، خصوصاً أن القناع سمة أساسية فيه، لكي يخرج كل مشاهد بفهمه الذاتي

وانطباعه الخاص عن القصة، وهي عادة أشبه ما تكون بالأحلام وتتناول موضوعات آلهة أو أشباح وغيلان وكائنات ما وراء الطبيعة. وهذا الشكل المسرحي أقدم من الكابوكي بعدة قرون، ويرجع تاريخ نشأته إلى القرن الرابع عشر الميلادي. وفي الفترات الفاصلة بين المشاهد تقدم لقطات كوميدية مقتبسة من مسرح الدمى الذي نشأ وتطور في الفترة ذاتها. ومن خصائص هذا المسرح أن منصة العرض مربعة وسقفها مدعوم بأعمدة ظاهرة في زواياها الأربع، وهي مفتوحة من ثلاث جهات، بينما تزين الخلفية صور معينة كأشجار الصنوبر. وهناك جسر جانبي يؤدي إلى خارج المسرح خاص بدخول الممثلين. وفي الماضي كان المسرح مكشوفاً في الهواء الطلق، لكن العروض الحديثة صارت في داخل المبنى المسرحي. وقد وصفه الكاتب هاتا (كوهيه) في مجلة «الشمس» بأنه يغري بالنوم! ولم يكن منتقداً رتابة الإيقاع وبرودة الأقنعة ولكنه كان يعني أن من لا يطلع باهتمام على تاريخ هذا المسرح وطبيعة موضوعاته لا يمكن أن يستمتع بالعرض، وسرعان ما يصاب بالملل ويدب في أجفانه النعاس، لكن الكاتب الظريف يحذر من الشخير!

هذا الشكل المسرحي يحظى بتقدير كبير لأنه يتجاوز

بموضوعاته الحياة التي تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، فهو يتناول أحداثاً قبل الولادة وما بعد الممات. هذا يعني أن فيه مسحة دينية، وحتى صوفية تحتفي بالروح وتتجاوز العالم الواقعي المنظور. ويمتاز العرض بإشارات وأبعاد وإيحاءات رمزية تزيد المشاهد متعة وتأملاً، فأنت توغل في أفكارك وأحلامك لتستكشف ما وراء الأقنعة وتستجلي ما وراء الكلمات وإيقاع الصوت والموسيقا وحركة الجسد. وربما كانت اللقطات الكوميدية الخفيفة في فواصل الاستراحة بين المشاهد تزيد في عمق الدلالة وغنى الإيحاء.

المسرح الحديث والسينما، لهما أيضاً خصائصهما اليابانية. وهناك شباب مبدعون ومغامرون في عرض تجاربهم، حتى بين الطلبة. والعبارة ونبرة الأداء والموسيقا التعبيرية لا تكفي، إنما الإيماءة وحركة الجسد وفواصل الصمت.. هذه كلها لها دورها المؤثر في العرض، فالمسرح لعبة للفرجة والمتعة والفائدة، وهي لعبة فنية/ جمالية للصغار والكبار معاً، وهي في اليابان للواقع الحي وما وراء الواقع كذلك.

ومن أجمل الأفلام التي شاهدتها فيلم يرصد حياة عجوز مهاجر يعود إلى بلده في أواخر خريف العمر كأنه زوربا

ياباني وعنوانه «كأنه ابن الريح» للمخرج ساتو. ولقد سألته، بعد عرض فيلمه، إن كان شاهد فيلم زوربا ونجمه أنتوني كوين، فنفى ذلك.. ولا أشك في صدقه. لكن ذلك لا يلغي التشابه الكبير بين العملين، وإن كان الفيلم الياباني أكثر مرحاً وعذوبة وإشراقاً، رغم روعة زوربا في الرواية والفيلم معاً.

وسأتوقف قليلاً أمام آخر عمل مسرحي شاهدته في طوكيو وكان بعنوان ٢/٢ لنجمة الغناء والمسرح الغنائي الياباني نكاجيما (ميوكي). وهذه النجمة تتمتع بمستوى مذهل من عذوبة الصوت ورشاقة الحركة، وقامت بجهد متميز في أداء الشطر الأكبر من المسرحية التي تدور حول حالة نفسية تعاني منها البطلة بسبب موت أختها وخوفها الوهمي من أن تكون هي السبب في ذلك الموت، ثم تقوم برحلة ترفيهية إلى فييتنام.. وهناك تكشف عن الواقع الاجتماعي المزري في تلك البلاد حيث لم تجد غير اللصوص، ولم أستطع إدراك السبب الذي دفع الكاتب إلى إقحام هذه المشاهد. وقد استغربت من فنانة كبيرة ذلك الموقف العنصري حتى كأنها سائحة أميركية لا تزال مأخوذة بأشباح الحرب. وقد طلبت برجاء من الأستاذ الذي رافقني في مشاهدة العرض أن ينقل إلى الفنانة احتجاجي على تلك الإساءة الصارخة بلا أي مسوغ فني أو

موضوعي في نسيج العمل. لكن الأستاذ لم يكن ليرى أي علاقة بين الفن والواقع، وقد اعتذر عن نقل الاحتجاج.

ثلاث سنوات في طوكيو، غلغلت في نسيج لياليها حتى القاع.. وقلما نمت قبل الرابعة صباحاً. ولعل السنة الأخيرة كانت أخصب السنوات وأجملها، إذ صار التفاهم ميسوراً بلغتهم، وقد تعرفت إلى إحدى الفرق البوذية من أتباع فرقة زِنْ Zen الصوفية. كنا نلتقي مرتين في الأسبوع. نتحاور ونشرب الشاي الأخضر بطريقته التقليدية ونقوم بنزهات ورحلات مشتركة وبسيطة التكاليف. سيدة في الثانية والثمانين كانت مشرفة على تلك الفرقة الأسرة الكبيرة. وكنت ألح عليها بأسئلتي مداعباً:

«Oka–san سيدتي الوالدة، متى أحصل على الإشراق؟!»

وكانت تضحك كطفلة، وهي تقدم فنجان الشاي الأخضر (المبارك) وتقول: «ما زال الطريق أمامك طويلاً.. سافر إلى الهند أولاً، وعش هناك، ولكل شيء أوانه.»

يقول الشاعر البوذي:

لا فرق بين الحياة والموت إلا كالفارق بين الماء والجليد.

ربما بدا شعرهم غامضاً صعباً، لكن من اطلّع على التجربة الصوفية لدى إحدى الفرق البوذية، يستطيع أن يدرك جمال

ذلك البوح الوجداني المكنون في الأعماق، لأن لغة الروح واحدة أو متقاربة في جميع اللغات، وعلى مر العصور.

ثلاث سنوات مضت كالحلم... وغالباً ما أتساءل: أين ينتهي الحلم وأين يبدأ الواقع، أين تختفي أرض الواقع ويطلع كوكب الأحلام... ذلك ما لم أستطع إدراكه أو اكتشافه. ومن هنا، من هذا الغموض الكوني الجميل، تنعتق الروح من أغلال الواقع الأخطبوطي الفادح وأمراضه المادية المزمنة، وينبثق الشعر في فضاء صوفي بلا حدود، مفعماً بالأمل والعزاء والغبطة الروحية الغامرة.

ولعل أجمل حكمة خرجت بها من تلك البلاد جاءت من مصارعة لم أكن أحبها ولا أميل لمشاهدتها. إنها مصارعة السومو Sumo، وهي تجري بين رجال ضخام يبلغ وزن واحدهم نحو مئة وخمسين كغ. المباراة تجري داخل دائرة من القش، من تزل قدمه إلى خارج الدائرة يخسر. ومن يلامس أرض الحلبة بغير أخمص قدميه يخسر أيضاً. وفلسفة هذه الرياضة تقول: إن لكل كائن وكل جرم في هذا الكون مجالاً ومركز ثقل أو نقطة ارتكاز، فإذا اختل مركز ثقله سقط وانتهى، وإذا خرج من مداره انتهى. وهذه الحكمة تنطبق على الأفراد والجماعات والأمم.. وحتى على الأجرام السابحة في الفضاء.

ذلك الشرق العظيم

أدرك جيداً أن للمركزية الغربية سحرها وجاذبيتها، سواء كانت أوروبية أو أميركية. ولعل الرواية في أمريكا اللاتينية زادت ذلك الغرب جمالاً وفتنة، كما أن للهند روعتها الخاصة، بدءاً من أساطيرها وليس انتهاء بطاغور وغاندي وسعادت حسن مانتو.. وحتى ذلك الروائي الرجيم وعالمه الغرائبي. لكني اكتشفت، وأنا على عتبة الستين، أن للشرق الأقصى جماله وجاذبيته وعظمته أيضاً، منذ أن قذفت بروحي ويلات الحروب الدائرة بين «الأشقاء» إلى البحث عن أية كوة للفرار من شرق المتوسط ونظامه العربي الذي لا يرحم، ولا يترك ذرة من رحمة الله تنزل عليك أو تقترب من حياتك وفضائك.

وكانت اليابان، جزر الواق واق، ملاذاً جميلاً، غير متوقع، وأشبه ما يكون بواحة الأحلام...

وفي محاولتي هذه، وبشغف العاشق لدى رجوع الشيخ إلى صباه، تناولت بإيجاز خلاصة تجربتي في تلك الجزر المترامية على حافة المحيط العظيم في أقصى الشرق، ولم أغفل عن عظمة الصين حيث تقتضي الإشارة إلى ذلك، بخاصة أنها ينبوع معظم الإرث الحضاري في اليابان: الفلك، الأبجدية، الدين، الفنون، ألوان المائدة، الأساطير وحتى النظام الإمبراطوري.

أبوظبي في ٢٤ / ٩ / ٢٠١٣

هوامش ولمحات

في ختام هذه القراءة الخاصة في المشهد الياباني، أورد هنا أهم الكتب والمراجع التي استندت إليها في تدقيق الأسماء والوقائع وتواريخها، كما رجعت إليها في إضاءة بعض النقاط والاستئناس بلمحات من القصص والأساطير في صيغتها الموجزة.

* باشو Basho Matsuo،(١٦٤٤-١٦٩٤): أعظم شعراء اليابان ورائد شعر الهايكو، واسم «باشو» غلب على الشاعر من شجرة موز غرسها له أحد المعجبين في حديقة داره، في إيدو. كان الشاعر مولعاً بالتجوال في الطبيعة، على خطى الكهنة البوذيين، وقد دون ذلك في نثر لا يقل جمالاً ورقة عن شعره.

* خواطر هيروشيما للروائي أووِه (كِنْزابُرو): كتبها إثر زيارته للمدينة المنكوبة في الذكرى العشرين للكارثة، والتقى العديد ممن نجوا وكانوا لا يزالون يعانون من آلام شتى، وهو يتحدث بمحبة واعتزاز وإجلال لأولئك الأطباء والممرضين، وحتى المصابين، وكذلك المتطوعين في خدمة المنكوبين. والكتاب يمنح قارئه طاقة من الأمل والتحدي في مقاومة كل أشكال التعصب والحرب والعدوان، لتكون هيروشيما وشقيقتها ناغاساكي أولى ضحايا السلاح النووي وآخرها.

* اللغة اليابانية نِهُنْغُو Nihon-go مقطعية منغومة، وفي أبجديتها المبسطة ثلاثة أحرف علة و١٣ حرفاً متحركاً، ولكل حرف خمسة ألفاظ وله خمسة أشكال أيضاً. أما النون فهو الوحيد القابل للسكون وله شكله الخاص، إضافة لحركاته الخمس، وهي مع ما يقابلها باللاتينية كما يلي: فتح (a)، كسر حاد i))، ضم حاد u))، كسر مائل e))، ضم مائل o)) كما مر في مشهد الطلبة. وهم يدعون هذه الأحرف المساعدة على اللفظ روماجي Romaji، أي رومانية/ لاتينية. والحركة قد تكون قصيرة، وقد تأتي حرف علة ممدوداً، وفي القواميس يضاعفون حرف العلة أحياناً أو يضعون فوقه خطاً قصيراً (شحطة) في الغالب. وهكذا تكتب طوكيو، مثلاً، حسب اللفظ: Tookyoo أو Tokyo. والتمييز بين الحركات المائلة والحادة ضروري جداً، منعاً لأي التباس. كنا مرة نتشاور في أمر الغداء، فقلت للأصدقاء سأطلب لحماً مشوياً (يَكِي نِكُو)، وأخطأت في لفظ الكلمة الأخيرة، وهي تعني (مشوي) إذا لفظت بحركات حادة وتكتب هكذا Niku، وهي تعني (قط أو قطة) إذا لفظت بحركات مائلة وتكتب هكذا Neko. ولولا تهذيبهم الزائد لما مرت تلك الغلطة على خير!

المفرد والجمع واحد في اليابانية، باستثناء كلمات قليلة؛ والمؤنث والمذكر واحد كذلك. وحين تطلع على دائرة واسعة من المفردات تظن أنها لغة جامدة بلا عواطف، لكن المتكلم حين يختار كلمة معينة في الحديث، فهو الذي يمنحها الشحنة العاطفية المقصودة، ويكفي النطق بتلك الكلمة وطريقة لفظها لتدرك المغزى. إن لكل لغة أسرارها وخصائصها، وتلك هي عظمة التنوع البشري وغنى ثقافاته على اتساع هذا العالم.

* الياكوزا Yakuza كلمة تشير إلى المافيا، لكن الباحثين يؤكدون أن أصل الكلمة غير معروف. والطريف أن أحدهم يقول إن أوراق اللعب ٩ و ٨ و٣ تلفظ (ياكوزا) ولكن مجموعها ٢٠، وهذا الرقم ليست له أية دلالة أو علاقة بالمافيا ولا بما يسمى بالجريمة المنظمة وعملياتها السرية.

المراجع الأجنبية

١ Akutagawa. Ryunosuke: Rashomon and Othor Stories.
٢ – Doi. Takeo: The Anatomy of Independence :I. ١٩٨٠.
= – Doi. Takeo: The Anatomy of Self :II. ١٩٨٥.
٣ – John Allyn: The ٤٧ Ronin Story.
٤ – Kawabata. Yasunari: Izu dancer. Thousand Cranes. Sleeping Beauty.
٥ – Kawasaki. Ichiro :Japan Unmasked.
٦ – Komatsu. Sakyo: Japan Sinks.
٧ – Len Walsh: Read Japanese Lanuage.
٨ – Mishima. Yukio: The Temple of the Golden Pavillion.
٩ – Muramaru. Norikazu: Japanese Falktales.
١٠ – Murasaki. Shibiku: (Genji–monogatari): The Tale of Genji.
١١ – Nakane. Chie: Japanese Society.
١٢ – Natsume. Soseki: Kokoro. The Dancing Girl of Izu.
١٣ – oe. kenzaburo: Hiroshima Noto. Personal Matter. Noble Speech.
١٤ – Okakura. Kakuzo: The Book of Tea.
١٥ – ooka. Shohei: Fires on the Plain.
١٦ – Papinot. E.: Historical And Geographical dictionary of Japan.
١٧ – Tanizaki. Jun›ichiro: Diary of a Mad Old Man.
١٨ – Tayo. The Sun (a monthly magazine) . August ١٩٩٣. No ٣٨٦

الأبراج اليابانية

• هذه الأبراج اليابانية المأخوذة من الصين ترتبط بالسنين، لا بالشهور كالأبراج العربية والغربية. كانت بداية هذا القرن من الألفية الثالثة ٢٠٠١ في برج الأفعى.. وكذلك السنة الماضية. ونحن (٢٠١٤) في برج الحصان، والأسماء اليابانية واردة بين هلالين.

١ Rat (nezumi) الجرذ .	٢ Ox (ushi) الثور
٣ Tiger (tora) النمر.	٤ Rabbit (usagi) الأرنب
٥ Dragon (tatsu) التنين .	٦ Snake (hebi) الأفعى
٧ Horse (uma) الحصان .	٨ Sheep (hitsuji) الحمل
٩ Monkey (saru) القرد .	١٠ Rooster (tori) الديك
١١ Dog (inu) الكلب.	١٢ Boar (inoshishi) الخنزير

علي كنعان- سيرة ذاتية

- شاعر ومترجم من سوريا (من مواليد قرية الهزة، محافظة حمص ١٩٣٦ على هامش البادية التدمرية).
- درس الأدب الإنجليزي في جامعة دمشق، وله تسع مجموعات شعرية، جمعها في مجلدين منشورين بعنوان: الأعمال الشعرية.
- له عدة ترجمات كان آخرها:
- يوم سادت الصين البحار (الأسطول الذهبي للصين في عهد المينغ).
- «فن الحب» وقصائد أخرى للشاعر الروماني أوفيد، نشرها المجمع الثقافي في أبوظبي بعنوان «قيثارة حب».
- عضو مؤسس في اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ ١٩٦٨.
- شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية ومهرجانات الشعر.
- عمل نحو ٣٠ سنة في الصحافة الثقافية في سوريا، محرراً ومشرفاً...
- أمضى ثلاث سنوات مدرساً للأدب العربي في جامعة طوكيو باليابان.
- مقيم في أبوظبي منذ ١٩٩٨، يعمل محرراً في دار السويدي للنشر والتوزيع، وقد نشرت له الدار «عجائب الأسفار»، وهي حكايات مستخلصة من رحلة ابن بطوطة.
- له رحلة إلى بكين بعنوان: في مدار التنين.

وله تحت الطبع:

- أعلام الرواية اليابانية: الجزء الأول.
- مجموعتان شعريتان تحت الطبع بعنوان: غيوم الخشخاش، أقمار لا تغيب.

كتاب «دبي الثقافية»

سلسلة دورية تصدر عن

مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

هـا نـحـن ذا فـي «دبـي الـثـقـافـيـة» نـقـدم لـكـم هـذا الإصدار للشاعر والمترجم علي كنعان، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعـزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري

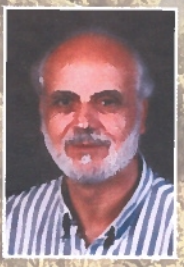

علي كنعان

101

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع